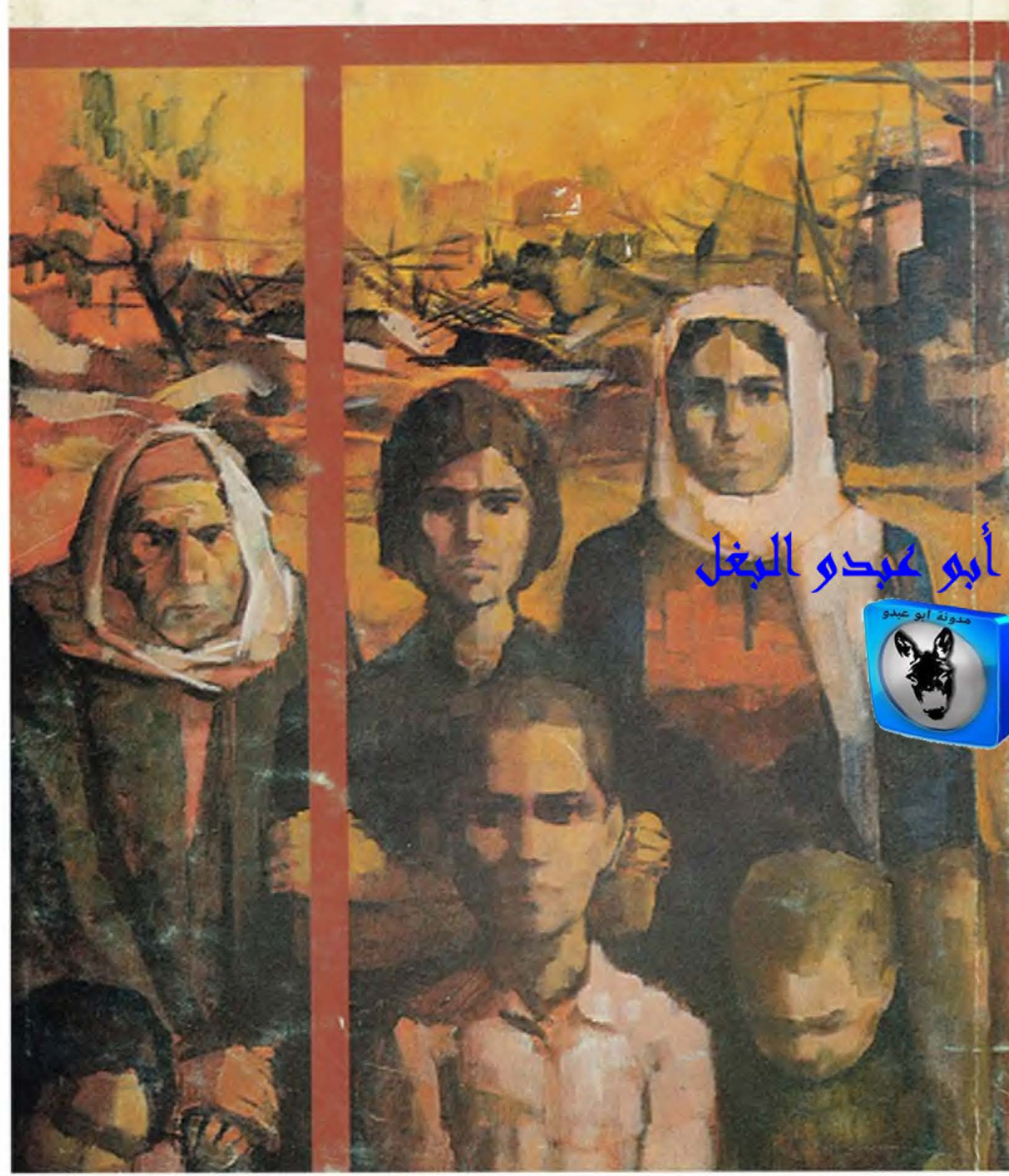
علي حسين خلف

عصافير الشمال





عصافير الشمـال

دار ابن خلدون

كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر

بيروت هاتف ٣١٢٣٣٥

ص. ب. ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى

١٩٨٠/٢/٢٢

علي حسين خلف

عصافير الشمال

(روايـــة)

دار ابن خلدون

صمم الغلاف
الفنان الفلسطيني اسماعيل شموط

الورقة الاولى

عباد شمس

- ١ -

تجمع القرية اطرافها وتنكمش في حلقة دائرية امام شمس الضحى ، وكأعشاش صغيرة تلتصق بيوتها الطينية الواطئة بالارض المنبسطة ، فيما امتد سرب من البيوت داخل الحواكير الغربية . دائرة وساق واحدة ، هكذا تبدو قرية « عباد شمس » وكأنها فزاعة عصافير في أرض امتلأت بالبساتين وحقول القمح.

لا أحد يعرف من أين جاء الاسم .

البعض قال ان شكل القرية يشبه عباد الشمس ، وان العثمانيين قلعوا نباتها من احواض الفلاحين ، وحرموا زراعتها ذات صيف .

قال آخرون مفسرين : معنى ذلك ان اجدادنا كانوا ينامون نهارا ويفيقون ليلا ، ويخالفون حظر التجول في القوانين البريطانية .

فريق ثالث اكتفى بربما واضاف : بدليل ان سلوكنا داخل

حظر التجول الجديد يشبه عباد الشمس . نقبع في منازلنا نهارا، ونصادق السهر وايام البيدر والحصاد .

الشيخ عبد النور ، أمام مسجد القرية ، قال ان كلمة عباد مشتقة من العبادة ، وشمس هي الشمس . اذا فأجدادنا كانوا يعبدون الشمس « والعياذ بالله » .

وعندما سألوا الاب سمعان ، قسيس كنيسة القرية ، اتفق مع الشيخ عبد النور بان عباد مشتقة من عبادة ، أما شمس فاله عربي قديم ، فعباد الشمس هو الشخص الذي يعبد الاله على طريقة عباد الشمس ، ينحني امامه نهارا ويتمرد عليه ليلا « وهذا هو حال جيلنا » .

تجمع القرية أطرافها وتنحني امام الشمس وكأنها تصلي . تفرد كفها في الليل فيتطاير سكانها ويتسامرون .

ارناؤوط ، صاحب المقهى الوحيد في القرية، من الصعب كنسه من بيت عاشور عبد الهادي ، رئيس المجلس المحلي . وكثيرا ما كان ينضم اليهما خليل السيلاوي ، المدرس في ثانوية الذكور، فيكثر اللغط في القرية .

حمدان بدران ، العجوز الذي يقطع الوقت بتربية الدواجن يهمس : « الله يستر . . اجتمعت الحكومة ! » ، هنيه بدران الخياطة ، ابنة العجوز ، تعلق ساخرة « حزب الثلاثة اجتمع » . الحلاق طارق ابو ورده ، يطوح بالمقص ويقول ضاحكا : « من قلة الدولة بنسلم عالنور » . الفران احمد منسي يثقل طرحة الخبز ويقول « عدي لي رجالك عدي » . الفلاح توفيق السعيد يكيل الشتائم بالجملة ويحلف بالله العظيم « لولا ابو درة لقلت انو كل أهل السيلة عرصات » .

ابو فارس ، رضوان الديراوي ، كان يتحسس سنابل القمح الطرية بنشوة ، ويفتح رئتيه لبحر الخضرة وعروق « الجلتون » و « الدريهمه » في الارض الشمالية . أشجار المشمش والدراق تحد من اندفاع الارض المزروعة شمالا ، وتلتقي بالبساتين التي تهبط حتى تلامس قاع وادي «ابو صرار»، حيث

يربض مقام قديم على سفحه يقول القرويون انه منزل احد الانبياء. رمق ابو فارس الاسلاك الشائكة التي تقطع ارضه بأسى ولوعة. لقد انتزعتها الحكومة بحجة املاك الغائبين ، عندما اضطر ابو فارس ان يتغيب لفترة من الوقت في عام ١٩٤٨ . طاف دائرة الخضرة ، فلمح الدبابات تتقدم نحو القرية . ربت على عجز الثور في العريشة ، ووضع العشب في العليقة وساقه امامه وهو يتمتم :

ــ يا عزيزي قطعوا عليك الاكل .. لقد جاؤوا !

ضرب حافره وخار بارتياح واخذ طريقه امام « أبو فارس » الى الحظيرة في المنزل ، والشمس لا تكف عن التواري في مسامات الارض المفتوحة للريح .

عيون الاطفال تلص من وراء شقوق البوابات الخشبية المتهدمة ، وتنقل الاخبار اولا بأول الى الجالسين في العليات والاحواش والمسطبات الاسمنتية .

ــ منذ ثمان وعشرين سنة وهم يقولون يا اهل القرية !

قالت ام فارس ولفت رأسها بعصبة خضراء ، فيما واصل مكبر الصوت نقل النداء من سيارة جيب عسكرية . اخذت تعد العليقة الحصان الذي صهل بقوة ، ومد رأسه من كوة الاسطبل وكأنه يستفسرها :

ــ ما الذي حدث يا أم فارس؟

دقت ام عيسى على صدرها فتحول الى نافورة حزن ومرجل غضب وهي تولول:

ــ اسنا في خم للفراخ !

واولا خوفها على الولد عيسى لقطعت الحارة ركضا لتستفسر ام فارس عن حقيقة الامر . لكن سيارة الجيب تواصل تحذير المواطنين من التجول وتدعوهم الى ملازمة منازلهم ! وتمنت ام عيسى لو يتاح لها الوقت لتزور هنية الخياطة ،وربما تأتي المدرسة نهى عابدي ، فتشبع رغبتها في الثرثرة والاستفسار . و « خالي

ابو كرش ارناؤوط يفسر على كيفه ، بلكي يطق وينفزر بنصه ويسكر قهوة العرصات » .

القطط تتسابق الى تسلق الجدران والاختفاء من الازقة، وصوت امراة تصيح على جارتها :

ـ ضبي الفراخ يا أم محمد ، يا خوف قلبي يسووا زي التسعة وعشرين ويمصوا دم الجاجات !

الكلاب تنبح وتطارد السيارات الغريبة ، والاطفال يتسابقون الى الحجارة . هاجت الخيول والابقار والحمير في مذاودها ، وهي تسمع مكبرات الصوت لاول مرة . فمنذعام ٤٨ حين احتل اليهود القرية ، وهي تعيش على حالها معزولة منسية . دائرة وساق واحدة ، وتبدو من بعيد وكأنها فزاعة عصافير .

الاجساد تنحني على فوهات المفاتيح وتحصي عدد السيارات والجنود وانواع الاسلحة ، وهنية بدران تجمع حزمة القش الجاف وتقذفها بالقرب من الطابون . عزقت العيدان المتبقية وقالت وهي تنظر نحو مصدر الصوت :

ـ المشكلة اننا نلتزم بيوتنا .

تساقطت شمس الظهيرة ، فالتقط راسه بين يديه ، وحاول ايقافه من التدحرج نحو حقل التجربة. شد على صدغيه فانتصبت مزهرية من حجر الطلق بين عينيه وغطت سقف حلمه : « ايـن يسكن هذا الرجل يا امي ؟ كنت كالزنبق البري الاحمر يا رضوان وانت تبحث عن الذي يعلمك الصبر . انا أعض يدك وانت تعض يدي ، ومن يصرخ اولا يخسر التجربة . كان قلبي معك ويريدك ان تفوز . شددت على يدك برفق ، فاندفعت تنشب اسنانك بلحم يدي وتصرخ قبلي . عندها قلت الك عنترة يسكن داخلي » .

عيون ممتلئة بالبهجة والفرح كانت تختلس النظرات الى ابي فارس وهو يسير خلف الثور بأناة وكبرياء.

- ٢ -

دائرة وزلزال ، والقرية تتحـول الى مشتـل من الاضـواء الخافتة المبعثرة على البيوت القابعة فيالظلمة كالاصـص . وعلى مرمى الحجر ، حيث استقروا في البسـاتين الشرقية ، يحسب الفلاحون ايام الحقل وايام البيدر . يتسرب الخوف الى الطرقات الترابية ، ويندر ان يستغني القرويون عن المصباح اليدوي، حيث تبرز الاحجار باحجام مختلفة في قاع الزقاق الترابي وام فارس تحمل سلة البوص . وزعت نظراتها بين الزقاق والباب الخشبي، مدت سلتها وعبرت ، فقفز عيسى مرحبا :

ـ اين الفطائر يا عمتي ؟ اعطني حصتي وسأنام !

داعبت شعر رأسه واخرجت فطيرة ناوَلته بعضها . نهرته أمه فقفز فرحا وركض نحو الغرفة الداخلية واختفى .

كانت ام عيسى منهمكة بترتيب الفرشة ووضع المخـدات، وباشة مرحبة ، تقدم الشاي بالميرمية ، ثم تطوي ثوبها بين ارجلها وتقـول :

ـ هيه وبعدين يا ام فارس ؟ خير انشا الله ؟ شو بدهـم منـا ؟

ـ والله يا اختي بيقولوا حاطين عينهم على الارض الشمالية، بدهم يخلوها يهودية ميه بالميه .

ـ فشروا .. واحنا ؟

ـ الحيط الواطي كل الناس بتركبه .

الليل حزمة من الاطمئنان ، والقلق يلف سهرات الفلاحـين حول الراديو ، فينقسمون . ضغـط اطراف قمبازه وتراخت سبابته ، فتناثرت القرية بيتا بيتا ، وعادت تتراص وتتلاصـق كشمعدان من النحاس . خطف ساقيه وقطـع ساحـة الجامـع كالومض واضاء مصباحه اليدوي بتقطع وهو يلقي بجسـده في

الزقاق . البيوت تتلاصق مرة اخرى ، وتقترب سقوفها من الارض وكأنها تخفي نفسها عن الانظار .

طرق الباب ثلاثا وتلاشت ملامحه في الظلمة . كررها فهرول رجل من خلف الباب وهو يتمتم :
ــ انتظر يا ابا فارس ، المعذرة نسيب المفتاح .

هبت رياح البابونج المبتلة فغسلت الاعشاب النابتة على حواف السطح . اتكأ توفيق السعيد على المخدة واخذ يلف سيجارة . النسيان وتوفيق السعيد متلازمان ، يستفسر عن آخر مقطع في حديث الاخر وفي حديثه ، ويصيح محاولا تبرير نسيانه: من يشاهد هذه الفظائع كيف لا ينسى ؟. اعتدل ابو فارس قال : الفارق بيننا كلمة صغيرة ، من يشاهد هذه الفظائع كيف ينسى ؟

ــ اريد ان أفهم بالضبط ، ما هو المقصود بهذه الحملة على القرية ؟ لا تقل لي .. بالعمال و ... اخشى ان يطمسوا وجودنا قبل ان تتحرك هذه الطبقة .
ــ انت واحد منها .
ــ وماذا يفعل توفيق السعيد في وجه حكومة تدعمها اميركا وتتسلح حتى الاسنان ؟!

قهقه بارتياح وعقد يديه خلف رقبته واستلقى على الفرشة. كان الطقس ربيعا وباب الحلاق ما زال مغلقا . فمن عادات طارق ابو وردة ، الحلاق الوحيد في القرية ، التقيد الصارم بنظام سنه لنفسه ، ست ساعات عمل ومن لا يعجبه « يضرب رأسه في الحيط » . واذا اغلق بابه فليس سهلا ان يفتحه للطارقين ، فالصالون غرفة نومه ومطبخه ومكان عمله . اشترى طاولة نرد حتى يقطع رزق ارناؤوط ، ويسحب منه بعض الزبائن ، وحتى يجد ما يقدمه للعاطلين والمطرودين . كان يعيد على مسامع الحضور ان العرب وليس الهنود او الفرس هم الذين اخترعوا طاولة النرد « وهذا ثابت في الكتب » ، ولم يحدث مرة ان ذكر مرجعا واحدا يثبت قوله . وعندما لايروقه احد اللاعبين يضيف « والسبب ان العرب في الجاهلية اكثر الشعوب ثروة في وقت الفراغ » .

اذا قرعوابابه ، يقفز ياسين المجنون الى الذاكرة ، ويصرخ: « يا ياسين لا مكان للنوم عندي » ، واذا لم يسمع صوته اضاف: « هذا ليس وقتا للعمل» ، وعندما يتواصل الطرق يصرخ بعصبية: « اذهب لامك واحلق بالمكنسة » . ولكنه هذه الليلة راغب في تغيير عاداته . ويتمنى ان يطرق بابه احد الزوار او الزبائن ، خاصة وان سلوك وحديث الشيخ عبد النور بعد صلاة المغرب اثار حيرته وقلقه . « لماذا تعمد الافلات مني ؟ لماذا لم يجب على اسئلتي ؟ والاغرب انه رفض دعوة العشاء التي لا يرفضها حتى ولو كان ميتا ! ولم يجد ما يقوله للناس سوى تكرار فرائض الوضوء ، والناس يستفسرون عن الجيش والبساتين الشرقية ».
ـ البرطيل حل دكة القاضي .

هز رأسه كمن يطرد هذا الخاطر ، وانتبه الى طرق خفيف على الباب ، نهض فرحا وبدأ الطفل يتحدث : « بسلم عليك ابوي وبقلك اذا كنت فاضي تعال عنده » . « فرجت » ، قال وجمع عدة الحلاقة على عجل ، وسار مسرعا والطفل يركض خلفه .

« ايش بدهم بها القرية ؟ طول عمرنا الحيط الحيط ويا رب الستيرة . بالك بيصير اشي على الدكان ؟ رحت لصاحبهم عاشور عبد الهادي ، وشوف العرص ايش جاوب اللي بقع من السماء بتلقاه الارض . أي ولك يا هامل هو كل واحد منا ألو سما لحاله ؟ يا سيدي قص زي ما بدك . وبعدين يا عمي هالبلد مش مقطوعة من شجرة ، ول ما في حدا يقول بس ؟ يا سيدي جز زي ما بدك ، ما حدش بيشوف الشعرات غير المره ! والله مش مزحه هاي ، بيوتنا رح تخرب اذ عملو لهم فص ، الله الوكيل اللي قدامي واللي وراي بها الدكانة . ويا حسرتك يا جميل وادي اذا كانوا حاطين عينهم عليها !! والله لو حدا سوى شغله لقلنا معلش ، اللي بدوس على شفالك دوس على اجريه ، لكن طول عمرنا زي اليتامى الطية بها القرية . ولك يا عمي المشكل مش هون ، هذوله ما عندهمش لحية مشطة ! الله يجيب اللي فيه الخير » .

لون حيطان القرية يندغم بلون الارض فتبدو المنازل كنتوءات

في التربـة الحمراء ، من الارض كانـوا يأكلون ويصبـون قوالب اللبن ويفتحون مقالع الحجارة . ويعدون السنة بمواسمها وفصولها وايامها السعيدة والحزينة . ومنذ زمن والارض تقصر حواهم ، والافواه تتوالد بالاسئلة ، فيما استمرت البيوت علـى حالها . ومنذ ذلك الحين والارض لم تعد مصدر رزقهم ، ولـم تعد ورش البناء مكانا صالحا لزراعة القمح وانتظار الحصيد .

ارتعشت الورقة بيد هنية بدران وهي شاخصة في الظلمة تبكي ، كانت رسالته الوحيدة هي كل ما خلفه الياس ماضي من أثر مكتوب . اغمضت عينيها وقلبها ومدت الورقة الى فـوهـة السراج .

قبل ساعة او يزيد احكمت اغلاق قن الدجاج وجهزت عجنة الغد ونقعت الفاصوليا ، غطت جسد ابنتها فوق المد الخشبي ، واخوها تيسير لم يحضر ، فكيف ستبيت ارملة وحدها في مثل هذه الليلة الباردة المرعبة ؟ استرجعت الزقاق بعد فسحة المدرسة، الممر الاجباري لبيت اهلها ، حيث يسكن عبورة حارس المقبرة ، وحيث تسكن ملامحه وهراوته وهـو يكح ويتنحنح . انتفض جسدها ، وتحولت البرودة وسقسقة الصيصان الى رعب مفتوح ومطبـق .

من بين اصابعها هوى عن السقالة في عكا ، « تزوجـي يـا هنية فالزواج نصف الدين » ! ما الذي يريدونه من الياس ماضي وهم يكثرون اللغط حولنا ؟!

على رؤوس اصابعها قطعت غرفة الدواجن ، وبقفزة واحدة، غدت في الحاكورة . همس في شعرها وراسها كدوري يختفـي في ثلم الارض واكواز الذرة الصفراء . تسلقـت عينيه وغمغم بصرامة « ماكينة الخياطة افضل زوج من بعدي يا هنية ، انهـا مضمونة اكثر من عامل مياوم » . وعندما احضرها بكت بحرقـة ومرارة « دنت الساعة ، جاء الزوج الثاني فعلى الزوج الاول اخلاء السبيل » . تشبثت به ، بجذوع سنديانة كبيرة ، وكحب الدوم هوى من السقالة الى الرصيف ، وغـدا علامة فارقة للشـارع والقريـة .

لفت رأسها بشالها الابيض الناصع ، وشقت ظلمة الزقاق بصعوبة ، وعبير تغط في نوم عميق على كتفها . كان الليل سفينة من الصمت تتأرجح القرية على متنها . الفلاحون ما زالوا يبحثون في محطات الراديو عن السفن الاخرى والرماد . يختصرون قلقهم بنظرات قريبة واسئلة مترددة وتوقعات مفتوحة « اللي بدو يناطح ما يخبي قرونه »، « لماذا جلسوا في البستان؟» .

ـ يا أحمد منسي المؤامرة اكبر منا .

ـ يا استاذ عزيز انها تمر من فوقنا .

قلة ينادونه باسمه احمد منسي ، ويختصرونه بلقب الفران. النساء يقلن انه نظيف ومؤدب وجميل ، وابو فارس يصفه بالدينامو ، اما خليل السيلاوي فيسميه « ابو عقدة ، الشرس ، المجنون » . عزيز ياغي، صاحب المكتبة ، يسميه « حمار قراءة »، وهو اكثر النعوت محبة اليه رغم حشره في ثياب الحمار . ارناؤوط صاحب المقهى ، يفتل شنبه ويضع رجلا على رجل ، يأخذ نفسا من الارجيلة ويقول : « صار شابا من قلة الشباب » ! يوم نقلوا له الخبر كاد يفقد صوابه، ولاحظت ثريا ، ابنة ارناؤوط ، منذ دخولها الفرن انه متوتر الاعصاب ، فلم يبادرها كعادته وهو يمسك طبق العجين : « التطور ليس عيبا » . تلمح فيه الرغبة في الانتقام . اسنانه تصر وعيونه تبرق بحدة ، فتفمغم عندما يكونان منفردين .

ـ احمد ، اترك السياسة وتزوجني .

يغمض عينيه ويبتسم بسخرية .

ـ احمد ، هل تحب هنية بدران ؟

ينتفض ، فتغادر الفرن باكية .

داهمته العيون السوداء كبحيرة من الدماس ، وتوحدت ذؤابات الشعر النحاسي بلهيب موتور السولار ، وهج حرارة السدة تحول الى فرن صغير يشويه . « آه لو لم تحب الياس ماضي !» .

ـ عزيز ياغي !؟ يا اهلا .

دفن رأسه في الصمت وتشاغل بوضع كتاب فوق صندوق خشبي هو مكتبته . امام عزيز ياغي يتحول احمد منسي الى تلميذ اخرس ، يفتح اذنيه ولا يحاور .

ـ دولة نظيفة من العرب .. هكذا اذا !

قال عزيز ياغي ، فحدق احمد منسي بانتباه . اشعل سيجارة وفكر بأي اجابة وظل صامتا .

ـ حرب ٤٨ لم تنته بعد ، هكذا يكتبون ، هذه اطول هدنة في التاريخ .

ظل عزيز ياغي يحدق في الجدار . يعض شفتيه ،ويحرك ساقه اليسرى باضطراب .

ـ معنى ذلك ، تهويد عباد شمس .. جاء دورنا .

- ٣ -

مدت يدها تتحسس قاع الغرفة بحثا عن المفتاح فاصطدمت بحافة المد الخشبي . نهضت معتمدة عليه، وسارت مع الجدار فارتطمت يدها بالمفتاح حيث كان معلقا في مسمار قرب الباب . كانت قد احكمت اغلاق باب الحوش وباب الغرفة واحتضنته . كلما حاول التملص ضغطت على كاحل قدمه ، ومدت يدها الى فمه واغلقته ، وأوصته الا يرفع صوته حتى واو خلعوا الباب . تململ قلقا وجلبة تتناهى الى مسمعه . اصوات الجنود واقدامهم وقرقعة ما ، تقرع باب الحوش والشباك ، وهما بين النافذة والباب يحبسان انفاسهما . انفلقت النافذة الخشبية نصفين كحبة جوز تحت كعب البندقية ، وأطل وجه جندي محتقن ، وعرق رقبته منتفخ كحبل غسيل ، وقذف قنبلة دخانية .

رائحة مقززة تداخلت مع دوائر السواد وام عيسى تمد

يدها لتتحسس وجهه ، كان يسعل وكأنه يغالب نوبة حادة الربو، ورغبة في التقيء .

ـ عيسى يما !

بدا وكأنه نائم وجفناه لا يرفان . السخام يتجمع بقعا على جفنيه وحاجبيه ، ويغطي جزءا من خده المزرق وقميصه الابيض الطويل . غيمة من القلق تنهمر مطرا قاتما في صدرها ، وتتحول الى كتلة صلبة من المرارة الخانقة ، وبلطخة خاطفة رسمت مصيرها .

ـ عيسى يما!

كان يئن ككومة من القش وهي تشقله الى صدرها ، وتهرع جزعة الى الزقاق . كتلتان من السواد تخبان في الرعب ، وجندي يهرول خلفها ، ويلكز كتفها بعصاه سائلا :

ـ الى اين يا امرأة ؟ تعالي .

تجمد الدى بعروق الجندي وتراجع ببطء شديد وحذر وهو يحملق بوجهها . قرص من السواد تبرق داخله عينان حادتان. تساقطت العصا من يد الجندي وأطلق ساقيه وهو يولول : بحق الشيطان من تكون ؟ اوه .. يا الهي !

في ساحة المطحنة ، الشاحنات ما زالت متوقفة والجنود يوالون املائها بالرجال والنساء . فوق كل شاحنة وقف جنديان لحراسة الموقوفين . وبجوار الشاحنات وقفت سيارتا لاندوفر فارغتين . في المدخل تقف سيارة جيب ، وهي اول ما يواجه الداخل الى الساحة . كان باب السيارة الى يمين السائق مفتوحا، ولاح منه وجه جندي منتفخ الوجه ، يرفع يسراه الى الاعلى ، وبين حين وآخر يطلق رصاصة في الهواء .

ـ اسمع يا خوي !

لم يلتفت وظل يمضغ لبانا ويحرك قدميه على قاع السيارة بخبطات متلاحقة .

ـ خذني الى المستشفى .. الولد يموت !

تطلع نحوها باشمئزاز وجفل عندما وقع بصره على لطخات

السخام . كانت واحدة من الشاحنات تتحرك وتصدر دويا غطى على انين عيسى وصيحاته المخنوقة وتأوهاته . سعل بتشنج وجندي من الخلف ينفزها بعصاه .

ـ اذهبي الى البيت .

ـ عيسى يموت.

ـ دعيه يموت في المنزل .

دقت على صدرها ووضعت ولدها على الكرسي بجوار السائق وهمت بالصعود . نترها الجندي الاخر وظل عيسى مغمض العينين ورأسه يتدلى الى كتفه . سقطت على الارض وقبل ان تتمكن من النهوض ، أمسك جنديان بها ، كل واحد بأبط ، وجراها إلى الشاحنة وهي تنوح :

ـ يا تاج راسي يا يما، ومنين اجيبك تاج راسي ؟

لطمها جندي على مؤخرة رأسها وصرخ :

ـ اخرسي يا امرأة . . هذا ليس وقتا للغناء .

كانت تجوح والايدي تتراخى واهات الجنود يزفر فوق رأسها . دفرته برجلها ووقفت، تناثرت خصلات شعرها الاشيب الاشعث ، والدمع يفتح ممرات خمرية في لطخات السخام . ركضت نحو الجيب وتدافع اثنان خلفها ، والجندي ذو الوجه المنتفخ يتابع مضغ العلكة ويطلق رصاصة في الهواء بين حين وآخر .

ـ خذوه الى المستشفى !

وضعت يدها على رفراف السيارة وتراخت تحت العصا التيطجت على كتفها . اطلقت زفرة مكتومة والسحب الرمادية تمرق فوق تعرجات الطريق الترابية والبساتين . كان الشفق قد نشر لونه الدموي على البيوت الطينية الواطئة ، حين دوت فرامل الشاحنة باتجاه الاسفلت .

حلة من الوهج تنضج على اطرافها مروج القمح. الازقة ممرات من الصمت ، وساحة المطحنة جزيرة من الطمي المتكلس .

هكذا كانت عباد شمس ظهرا : دائرة وساق وتبدو من داخلها وكأنها قرية مهجورة ..

قبل بزوغ الشمس ، سرى العمال الى الاسفلت وفتحوا صدورهم للريح الغربية المشبعة برطوبة البحر . كانوا يحملون زواداتهم وغابوا بالتقسيط مع السيارات الذاهبةالى حيفا وتل ابيب. وعندما غاب آخر واحد منهم. كانت ملامح المنازل الضبابية تندغم في لون الارض الداكن .

الفلاحون خرجوا الى البساتين والحقول والحواكير ، وسرح الراعي مع قطيعه الى وادي «ابو صرار»، وبدأت النسوة في تفقد شون الحطب واقنان الدجاج وتحضير الاكل . كانت القرية تخرج من تحت الندى ، وتجفف حيطانها في شمس صافية دافئة .

نهض وجه هنية بدران وهبطت الملوحة الى اطراف شفتيها. بح صوتها واصبح كسقسقة دوري مرهق وهي تصد الاخشاب المحيطة بجسدها . صرخت وسار الصدى مع الاخشاب الى المطحنة .

□

عند تقاطع الاسفلت مع الشارع الترابي كان توفيق السعيد يأخذ طريقه الى المنزل ، ويدندن بأغنية « على الاوف مشعل ». يقصف عودا من القمح ويفرك السبلة بين يديه ، فتنهرس بعض حباتها النيئة الرطبة . تراجع خطوة الى الخلف ، وفتش بعيونه عن مكان يحميه ، فكانت صرخة الجندي وتوقف اللاندوفر اسرع منه .

ـ تعال يا كلب .

قفز اربعة جنود من صندوق اللاندروفر، ولم يعد بمقدوره ان يختفي . غرس اقدامه بالارض ، بلع ريقه وحاول ان يدخن، وحزمة من شعاع الشمس تكومت في وجهه .عينان عسليتان تربض فوقهما حواجبه الكثيفة كأجمة من شجر الصنوبر . بين حاجبيه تكاثفت ثنيات الغضب كأثلام الارض . تصلب انفهالمخروطي وتلاصقت الارنبتان حول منخريه وفوق شبه الاسود . تلاصقت

شفتاه وارتعش الحنكان وهو يقضم اسنانه بحنق . كان الحصان مربوطا الى ساق شجرة الزيتون بجواره . صهل الحصان محاولا الافلات من مذوده ــ الشجرة ، فأطلق جندي رصاصة في الهواء.
ــ حاسدينا على نتفة هالارض .

قال توفيق السعيد ، وعجلات السيارة تطوي المسافة ويرتفع غبار الزوبعة . انحنى وتناول حجرا فزمجر الضابط من مقدمة السيارة :
ــ اذا لم ترم الحجر .. اطلقنا النار !

حبات الزيتون السوداء والخضراء ، حين كانت تتساقط تحت عصي الفلاحين ، يهرع الاطفال ويملأ توفيق السعيد (حرجه) باعتزاز ونشوة . « جدوه »، فتساقط الحجر الى ثلم الارض ، ويداه تتحركان كفرع زيتونة بين العصي وصدور الجنود . ومن بعيد ، همس فلاح لزميله وهما يشاهدان المعركة :
ــ مسكين ! عندما أطلقوا النار ، ماذا اقول ؟ بصراحة انت نفسك اختبأت فوق الشجرة ، فماذا يفعل الحصان ؟

ضرب الارض بحافره ومد عنقه الى الاعلى وصهل بقوة . كانت بندقية العوزي تفتح فمها، والحصان يمتد بعنقه الى فروع الزيتون ، محاولا التخلص من القيود والقفز الى اعلى . شخل دمه وسال من الرقبة الى الجسد المرقط ، وهوى بجوار الساق، وظل يئن وتطفر من عينيه الدموع .

عجلات السيارة تطوي المسافة وتوفيق السعيد يتراكض مترنحا خلف اللاندروفر . كانت يداه مقيدتان الى السيارة بحبل يمتد بضعة امتار . كلما اسرع السائق ارتطم رأسه بمؤخرة اللاند وانهالت عليه عصي الجنود الجالسين داخله . واذا ابطأت السيارة تحول ظهر توفيق السعيد الى كيس من الرمل تنهال عليه عصا جندي آخر ظل يركض خلفه .

عجلات السيارة تطوي المسافة والارض تفوح برائحة الشمس . رفع يده عن سبل القمح وغاصت قدماه في الطين والاعشاب . خار الثور في العريشة وتطلع مستفسرا « وبعدين يا

عمي ؟ شو ها لشغلة ؟» . التقط ابو فارس حزمة من السبل واحاطوا به . والثور يجأر بـ « لا » طويلة .

ـ هذا الحيوان افسدوه ايضا. ، سنرتاح منه !

قفز الى الخلف وسقط على ركبتيه وكأن مائة رطل هوت على كتفيه . جثا الثور وتحولت الـ «لا» الممدودة الى خوار باهت ظل يخبو حتى امتلأ فمه بتراب العريشة . نهض وفتح ذراعيه فتراجعوا خطوة او يزيد . يلهث بصعوبة ويوالي فتح ذراعيه، فيتطاير القمباز ويشكل مع جسده خيمة صغيرة ترفرف ، وعيونه كموقد فحم تلمع بالشرر . قذفوه بقنبلة وكعمود من الطين سقط على الارض بين الدوائر اللولبية للدخان .

□

الشاحنات توقفت واحجار النرد مرمية علىالساحة وامام الصالون . بقعة دم لطخت صورة رجل يتمنطق بالمجاند والرصاص فيصدر المحل . كان يحمل موسى الحلاقة عندما لمحهم في المرآة وجوه كأوكار الدبابات محفورة بالاغلفة الفارغة . زمجر المدفع فامتدت الهراوة الى باطن يده . التقطها في يسراه ولوح بالموسى في يمينه ، صعدوا ظهره وظل كقوس الصيد مائلا بين الارض والسقف ، بين وقت الفراغ في الجاهلية ومقهى ارنائوط .

□

جسد منتفخ كبغل ، وشاربان يرفان على جانبي فمه وقهقهة تتلاشى تحت نعال الجنود . كان على باب منزله يلوح للجنود مرحبا !

ـ سنبيدكم واحدا واحدا .

قال شرطي وهوى بالعصا . حملق ارنائوط برعب وأحس ان صدره التصق بظهره ، وان لسانه لا يقوى على توضيح المسألة . رفسه آخر على اذنه اليسرى فتدفق الدم الى الحذاء ، انحنى الجندي وشد شعر رأسه وقرب فمه الى نقطة الدم على الحذاء وقال :

ـ العق دمك ايها الوسخ !

كانوا يستبدلون شعر رأسه بياقة القميص ولم تعد عباد شمس ملجأ للعصافير .

□

قمبازه يتطاير والجنود يركضون خلفه .

عشرات الامتار تفصل بين جسده وهراواتهم ولتوه اغلق الدكان . قلبه كرفاص من الرعب يكبو ثم ينهض ، وبينه وبين الموت قامة من الانتظار .

دفش الباب بكل جسده فأصبح في حوش الدار واحكم الرتاج . هو في الداخل وخلف الباب اصوات الجنود . عيونه تفر في كل الاتجاهات وترتد الى الجدار . ظهره الى الحائط وخلف الباب تعلو الهراوات وتطج وتختلط الشتائم . وولولة الزوجة وبكى الاطفال ولم يعد يلحظ غير حرارة الشمس فيغمض عينيه .

كسروا الباب واندفعوا الى الحوش . وفي الازقة تتساقط الحجارة وتقف النسوة خلف البوابات المغلقة . مد يده مستنكرا وصرخ والاقدام تصعد فوقه وتهرسه .

ـ سنقلع ألسنتكم حتى تتعلموا الصمت !

صرخت زوجته وتحول صراخها الى صوت مذبوح يجأر ، وتناثرت قطع جرة الفخار وتنكة « الرصيع » والراديو ، وجميل وادي يفقد وعيه .

تناثرت قطع العجين على الجدران والمسطبة واحمد منسي يحملق بدهشة ويده ما زالت ممسكة بطرحة الخبز . طوح بالطرحة وقفز من الحفرة الى الزلاقة وبيده الملقط . كان الفرن قد فرغ تماما من النسوة والصراخ وظلت هراوات الجنود تفترش الارض الترابية . ثلاثة من الجنود يتحفزون للانقضاض ، واحمد منسي يلوح بالملقط . دار دورتين وهوى . دورة للنار والايدي وهي تتداخل وتتلاحق ، ودورة للقنبلة المسيلة للوموع . ومن بين الاورام لمح خوذات الجنود ، والدم يتدفق حارا من فمه وانفه،

وهم يسوقونه الى ساحة المطحنة .

□

الجنود يقفزون من السيارات الى ساحة المطحنة . ولتوه اغلق الدكان واندفعوا خلفه . تتوقف الشاحنات وتوفيق السعيد ما زال يركض بين عصا الجندي الذي يركض خلفه وبين عصي الجنود في سيارة اللاندروفر .

بين الزقاق والذاكرة كتب في دفتر يومياته غلة الامس :

« .. على مائدة المرق الاسود يطهو الخنازير لحم الخنازير بدمنا . في الاسفل نحن ، وفوقنا الطوائف الشرقية ، وفوق الكل الاشكناز . هكذا يريدون تحويل بلادنا الى عربة الريكشو الصينية، الاشكناز يجلسون فوقها ، ونحن والطوائف وفقراء الجميع نجرهم الى الجنة او النار ».

أغلق دفتره ووقف في مواجهة الميدان . ركض كمهر جموح وصهل في الازقة وفوق رفوف المكتبة ، واحمد منسي يطل من النار ويمضي « انت ذئب في القراءة وقطة في الميدان » .

قبل ان يقفز الى باب المكتبة كانوا أسرع منه . الكتب تتناثر، يخلعون اوراقها ، وبالحراب يحفرون الكلمات ويهشمون عناوين الكتب بالركل والرفس . جسده يهوي وينهض واوراق تتطاير في الساحة . فقد عزيز ياغي جذوة الاحساس بالمهانة ، ولف كشظية فوق طبقة من الاوراق وتحت عصي الجنود وقبضاتهم .

ــ سأقلع عينيه .

قال جندي وواصل بقبضته سد نوافذ الافق . جبل من التراب ينهال في عينيه ودبابة تمشي فوق ظهره ، واحذية تهرس اطراف اصابعه . تناثر زجاج النظارة الطبية ، واختلطت نتف الزجاج ببقع الدم .

ــ سأكسر ظهره .

قال جندي ورفع حذاءه البوت ، فتحولت البيوت الطينية الواطئة الى حي من الزئبق ، يهتز . يتقلص، ويتمدد . تجرحه

فيعاود تكثيف جزيئياته . مد يده وصنهل بتقطع بين عامود الدخان وسقف الكتب .
ــ الافضل ان نرتاح منه .

صوب الجندي وكان ظهر عزيزياغي كمعين من الفخار يتهشم . وككومة كتب تتدافع اوراقها الى الساحة والازقة .

ـ ٤ ـ

الشاحنة تهتز ، تتلاصق الاكتاف وترتج الرؤوس المعصوبة الاعين ، ويسقط جندي على الاجساد التي امامه . صاح احمد منسي وطوح ذراعه بحركة لا ارادية من شدة الالم ، فزار جندي ، واتكأ على رأس واحد من الموقوفين ، ونهض وهو يترنح . رفع عصاه ، وكان احمد منسي قد نزع رباط عينيه ، وحاول ان ينهض ، فلم تطاوعه قدماه . مالت العصا على كتفه ، ولحظ الدم يتدفق من قدمين عاريتين سقطا على حضنه ، وشخص يقلب صارخا ويتلوى . الجندي الاخر اسرع الى شعر رأسه وقبل ان يكمل اعادة ربط عينيه ، لحظ بقع الدم الجافة في باطن القدمين ، وبعض الصخور الغرانيتية في الجبال القريبة .
ــ انهض !

لم يتحرك . سقط رأسه الى جذع الشجرة وارتفع قفصه الصدري ثم هبط .
ــ انهض !

هزه فسقط كحبة دوم ، وتكوم كجميزة صغيرة .

لطمه على وجهه ، ففتحت الجميزة عينين مذعورتين حمراوين كالدم . احس بوخزة في كتفه ومد يده يتحسس الجرح .
ــ انهض !

تشبث بجذع الزيتونة وهم بالوقوف . تلقفته الايدي وساقته الى اللاندروفر . أخذت السيارة تبتعد ، وعيون ابي فارس تتراخى على الارض ، حتى غدت بحجم البؤبؤ فأغمض عينيه .

غادرت قوة الجيش القرية على هيئة رتل ، تسير في مقدمته سيارة الجيب . ترتفع اعمدة الغبار والسائق ذو الوجه المنتفخ، يمسك بيسراه الشباك ، ولم يعد بمقدوره ان يطلق بين حين وآخر رصاصته في الهواء . كان يمضغ العلكة ويلقي نظرة سريعة على الملازم اول حاييم الذي يجلس بجواره ، والبساتين تغرق في الصمت . وجه عيسى استقر على حذاء الجندي الملاصق للباب الخلفي ، والرتل يبتعد ، والفلاحان اللذان كانا على الشجرة ، وقفا فوق رأس الحصان وتحسس احدهما الجرح في رقبته .

الشاحنة تهتز كبستان من الرمان ، والجندي يمسح اطراف فمه بكم قميصه . تندفع الاكواز المائلة الى اسفل يمينا ويسارا، فيتعلق الجنود بحافة الشاحنة ويفردون ارجلهم وهم يغالبون السقوط . الاسئلة تخب في العيون المحجوزة ، وتغرق الشاحنة في الشفق، فيعلو الهمس بين الاجساد المرصوفة ويصرخ الجنود محذرين .

كان توفيق السعيد منبطحا في قاع الشاحنة ، ويضع يديه تحت وجهه حتى لا تهشمه الهزات المتلاحقة ، وقال هامسا :

ـ انها الطريق الى روش بينا .

لوى احمد منسي رأسه وظل منكسا ، واجاب :

ـ ربما يقودوننا الى شرطة سيجف .

ـ هذه الحفر ، وتلك الرائحة .. اوه .

ـ او الى مركز شرطة سخنين .

ـ كنت أعرفها حجرا حجرا .

تطلع توفيق السعيد الى وجه الجندي . كان وجهه كأوراق البنجويكولا مجوفا ويبدو انفه كذبابة في قعرها ، وعيناه كنذب صغيرة تلمع . همر ببضع كلمات ثقيلة ومد عصاه وصرخ :

ـ سنرى كيف سيشفع لكم هذا السيد المدعو بالراي العام!

ناقلة للجنود تقف على يمين الشارع وعلى يسارها سيارة جيب . وفي منتصف الاسفلت يمشي احد الجنود واضعا يديه خلف ظهره ، ومستغرقا في اغنية فرنسية . كان هندامه شديد الاناقة ويبدو نافرا لمن معه من قوة الحاجز . حزامه يبدو وكأنه اخرج من المخزن الان ويتدلى منه جراب المسدس ، والحذاء اللامع يصر على الاسفلت بطرقات منتظمة ، ويصدر دقا ملفتا النظر . ضغط السائق فرامل الجيب وتوقف .

ـ ألقينا القبض على سيارة وسائق من سكان قرية عباد شمس .

قال جندي وكأنه يقدم تقريرا لامر الاستطلاع عما يحدث في الحاجز.

ـ اين الضابط ؟

سأل الملازم اول حاييم ، فهرول الجندي الى الاسفلت ، وعاد خلف الجندي الذي ظل يعقد يديه وراء ظهره ويواصل الدندنة . كان وجهه امردا ، ويبدو انه لم يحلق منذ زمن بعيد ، اذ تناثرت شعيرات قليلة على الذقن واسفل الحنكين . كان ثلة من الجنود يجلسون القرفصاء على رصيف الشارع ويحتسون البيرة ثم يقذفون العلب الفارغة الى الحشائش البرية الطويلة .

تحادث الضابطان بهمس ، وركض جنديان الى الباب الخلفي للجيب ، وهرعا يحملان جثة الطفل عيسى ويقذفانه في الصندوق الخلفي للسيارة المحجوزة . ومن وراء الناقلة كان جنديان يلطمان السائق ويقذفانه في السيارة والدم يسيل على جبهته .

□

ابن جميلة ، السائق الوحيد في القرية لم يعد في نفس اليوم . كانت امه سعيدة لغيابه « فقد انقذه الله من الضرب ، وهذا سر دعواتي » ، وقلقة « فربما يعود فجأة ويأخذ نصيبه » . كانت تقلب كل الاحتمالات وتنتظر . وهي تفرك يديها وتضرب كفا بكف. اسئلة لجوجة تعاود الاستفسار عن الوقت وحال القرى المجاورة والاسفلت الرئيسي ، وكيف انها اشتغلت « عند اللي بسوا واللي

ما بسواش » حتى صنعت منه رجلا . ولانه عامود البيت فمن سيؤنس وحشتها اذا بقي غائبا ؟

دخل معصوب الرأس فقفزت مذعورة وعانقته . تحسست رأسه وهي تشتم :

ـ الله يكسر ايدهم ! الله يخرب بيوتهم !

عانقته ام فارس ، فيما ظلت امه ممسكة به ، وتقبله بين فترة واخرى ، وتلحظ وجومه وشروده .

ـ اخذوا السيارة .

قال وظل منكسا رأسه ، فصرخت امه بفزع :

ـ شو يما ؟ أخذوا السيارة الله يوخذهم . اخس على البز اللي رضعك ! اخس على تربايتي فيك ، ولك كيف بتخليهم يوخذوا سيارتك ؟؟

ـ يما من شان الله اسكتي .

ـ مقصر وفصه حامي !

تطلع نحو ام فارس وقال بحزن :

ـ اوصلوني بالسيارة ، سيارتي ، ثم عادوا بها من ساحة المطحنة ، ربما اخذوا الشارع الترابي بارض عاشور . قال احدهم انها من الان فصاعدا مصادرة لاسباب امنية ، وعليك ان تحصل على تصريح اذا اردت المرور بها .

ـ ارض عـاشور ؟

ندت عن ام فارس تنهيدة عميقة واردفت :

ـ معنى ذلك انهم اخذوا الطريق الى القرية وقطعوها عن الاسفلت .

قالت ام فارس ، واخذت تتخيل شكل المحاصرة . « لم يبق امامنا سوى الاسفلت ، الضلع العرضي لمستطيل من الحصار . انه النافذة الوحيدة الى الغرب . الضلع الطولي شمالا يبدأ من رأس الاسفلت وينتهي باراضي موسى بدران . قاع المستطيل ، الضلع الطولي جنوبا ، هو الاراضي المصادرة بحجة املاك الغائبين

عام ٤٨. وداخل المستطيل فجوات ترابية في الجهات الاربـــع واصبحت جميعها داخل الطوق » .

ظل واقفا ، يحرك يديه باضطراب ظاهر ، وينظر اختلاســا الى وجه امه وام فارس ، ويعاود قضم اظافره .

ـ مالك يمـا ؟

ـ عيسى

ـ مـــاله ؟

ـ . . . .

ـ عزا ! ليش ماله ؟ اوعى . . .

صرخت وفتحت فمها مشدوهة وجحظت عيناها . وكانـت الازقة تمتلىء بالمتوجهين لمشاهدة الطفل المخنوق .

□

هربت من الفجوة الصغيرة التي تصل البيت بالمقهى ، وظلت تنتظر رحيل الجنود . ليس سهلا ان تخفي وجع المشاهدة بمنديل من الرعب يقتلك .. مدت يدها فاصطدمت بالجدار ، والجنــود يواصلون بالاحذية واعقاب البنادق تهشيم جســـد ارناؤوط . المسافة تطول بين الفزع وطاقة الشكوى . تطوي جسدها وتجلس فوقه بانتظار لحظة موت او لحظة نجاة . هكذا كانت ثريا ارناؤوط عندما داهم الجند القرية ، وعندما طوحـــوا جسد ابيها تحـت نعالهم .

الى ايــن ؟

الطريق الى بيت عاشور عبد الهادي مزروع بالجند واشياء الفلاحين .

تقفز من الفجوة وكأنها تلقي بجسدها من تابوت اللحظة الى نافذة الدنيا . عمر جديد يبدأ حضوره اذا ارتحلوا ، واذا قطعـت المسافة بين المخبأ والمعسكر .

الى اين ؟

حاجز الجند يسد الطريق الى العيون الملتهبة بالخــــوف والتعب . وهرولة قطعت الازقة والطريق الترابي الى المعسكر« فمن يدري ربما بقي بعض المداهمين » .

قدمت جسدها فتحسسه الحارس مرتين قبل ان تدخل الى خيمة كاتسمان ، قائد المعسكر .

ــ اخذوا ابي وضربوه .

القرية لا تترجل عن حزنها وكاتسمان لا يفارق صمته ووجومه .

ــ لقد ضربوه وكأنه رضوان الديراوي !

لم يسحب يديه من تحت رأسه ، ولم تفارق استعادة المشهد . تتفرسه وكأنها تقلع بأظافرها شوك الجسد لتعززها في مواقع اخرى .

ــ اخذوه وهو ينزف دما .

سقط جسدها على حافة السرير ، كحجر يسقط في الهاوية . لم ترفع بصرها او تخفضه . استقر راسها بين يديها وكأنها تغفو ، ووجه ارناؤوط يئن تحت اقدام الجنود ، ويبتل شارباه بالدم ولا تملك الجرأة لتصرخ.

رفعت رأسها وحملقت به وهو يقول :

ــ اطمئني .. سأتصل بهم لنقله الى المستشفى .. وسأزوره غدا .

□

توقفت الشاحنة واخذ الجنود يقذفون الاجساد واحدا واحدا . يهوي الجسد ويطج على الارض ويسمع صرير عظامه. وقبل ان يتأوه او يصرخ تتلقفه ايد اخرى ، تجره الى المركز . وحالما ينزعون اللفافة عن عينيه يبدأ جنود اخرون دورة عملهم . القبضات والايدي المسننة والعصي تتسابق الى رؤوس ورقاب وبطون الموقوفين ، المحشورة في غرفة مستطيلة باردة الملامح ، عارية من المواد ، حيث يتدرب الشرطة الجودو .

ــ لتقف جانبا جماعة دير حنا .

اجساد خائرة القوى تخرج من الجمع ، وتحت انابيب المطاط تسرع مهرولة الى الرواق . تركض في الممر المفتوح الى نهايته ، فيغلق الجنود المرحاض ، ويعودون وهم يلهثون .

ـ ابناء عباد شمس الى الخلف .. اسرعوا .

أجساد تهرول ، تمشي ، تحبو . تزحف نحو الخلف .

ـ ابناء سخنين الى الجهة اليسرى .. بسرعة يا كلاب .

عيون محمرة ووجوه تنز غضبا تتعلق بالجهة اليسرى بحشرجة وانين .

ـ ابناء عرابة الى اليمين .

تفتش الرؤوس المرتجة والعيون الرجراجة عن الجهة اليمنى. بين عصي الجنود وشتائمهم ، ومواسير الغاز الصغيرة ، التي تصدر رائحة مقززة ودوارا عنيفا وجفاف ريق .

ـ ابناء نحف الى الامام .

يتقدم صف اخر ، وهو يمسح عينيه محاولا ازالة الغبش وآثار القنابل المسيلة للدموع في الاحواش والازقة . اللهب يشتعل بأطراف العينين والجفون وفي الشفاه المتورمة . كان اصطبلا الخيل في عهد الانتداب . من هنا يخرج الفرسان لتأديب القرى وجمع الضرائب واكل دجاجات الفلاحين . كانوا يلوحون بالكرابيج ويشمخون والاولاد يفرون امامهم وينظرون باعجاب الى هؤلاء البواشق . يرفعون الكرابيج ، ويملأون جيوبهم وتتزايد ادوات البيت وامتعته . رفع الكيام عصاه وشمخ ، وهو ينتقي مواقع الجسد في الرسغين والكوعين وعظام الصدر ويزمجر :

ـ لن تخيفوننا .. سنمضي في اسكان الشمال !

— ٥ —

فانوس الغروب يتساقط على رتل السيارات ، وهي تختفي، في الاسفلت المجاور . وجوه مخضلة بالغضب والشفق الكابي، تخرج الى الازقة ، دارعة ، فارعة ، تنفتح البوابات ، وتبدو غرفة ام عيسى كمحجر من الفحم . تلطم امرأة وجهها ، والاكتاف تتدفق الى البيوت وساحة المطحنة .

مفيد مرعي وخميس مفلح ، قفزا من الشجرة ، في الارض الشمالية ، وركضا نحو الحصان ، وتحسسا الرقبة والجسد المرقط ، كانت القافلة قد خرجت من حلقات الغبار في الطريق الترابية .

القرية نائمة في العتمة ، والطيور الخضراء .

. . . . . .

بارودته حملت صدى عاجرابها
حملت صدى واستوحشت لاصحابها

تغمض عينيها فتغلق نافذة عام ٣٧ ، وجسد الزوج الملفوف في البطانية . تهرع سارة بلعاوي ، زوجة توفيق السعيد ، الى الابريق وترش قليلا من الماء على وجهها ، وهي تربته بخبطات خفيفة متلاحقة . فتحت عينين غائمتين وتنهدت ، فقالت ام فارس :

ـ استراح من هم الدنيا .. نياله .

صرخ طفلها فهرعت اليه . مددته في حضنها واخذت تربت على ظهره ، عيونه مفتوحة على الربت وهو ينتظر الاغنية . فقد عودته سارة بلعاوي الا ينام دون غناء . البكاء يسد اذنيها ، فتغمض عينيها ، وتغني بشيء من الوشوشة :

نيمتك في العليه خوفي عليك من الحيه
تعاليله يا بدريه بلكن عا صوتك بينام

نيمتــك في المرجــوحه   خوفي عليك من الشـــوحه
تعـــاليله يــا ممدوحه   بلكــن عا صــوتك بينـــام

في العليه ، كان العجوز بدران يتصدر الواجهة ويلتف حوله الشيخ عبد النور والاب سمعان وجورج حنا ، رئيس النادي . موسى بدران يخرج ويدخل حاملا بكرج القهوة المرة ، وخميس مفلح يقص للمرة الثالثة ما رآه بعينه ، عندما جروا توفيق السعيد خلف اللاندروفر . داود مرعي يخفي رأسه وكأنه يتوقع سؤالا من الحضور « ما دمتم رجالا ، فلماذا بقيتم على الشجرة ؟ الحصان كان ارجل منكم ، على الاقل صهل ومات » !

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

جملة يتيمة حرص الشيخ عبد النور على تردادها كلما حاول تجنب الحديث. يقطع الوقت بتحريك السبحة وفي عدها وفركها. حمدان بدران يقص عن الاتراك حينا ، وعن الانجليز والدولة حينا آخر . كان الاتراك يعسكرون بجوار القرية ، وفي أحيان قليلة على البيادر . يبعثون رسولهم ، فيفتح المختار مضافته . ويقوم الجباة بجمع الضرائب . اكثر من مرة دخل الانجليز القرية ، وفتشوا المنازل بحثا عن الثوار في اعوام ٣٨ و ٤٧. « لكن القرية في كل عمرها لم تخسر قتيلا واحدا داخلها ».

طاروا اول الليل
حلوا شعــورهم حلوا
فرشـــوا سنجاجيدهم
عالمرج ما ابتلـــوا

همر وهمهم « دنيــا . آخرتها قطنة » ، ثم التفت نحو ابنه موسى وقال :

ـ هات الراديو يا ولد .. تانشوف ايش بتحكي الدولة !

...... والله سلام يا دولة ! مهو ابوي في قبره بيعرف عدد الصرارات اللي فيها ..

هرع موسى هابطا العلية ، وجورج حنا يتمتم :

ـ اذا كان القاضي غريمك لمين تشتكي ظلمك ؟

خيم الصمت على الوجوه ، والكــــل ينظر وينصــت الى الراديــو .

.... الموجز : قوات الامن تعتقل مجموعة من المشاغبيــن في قرى الشمال . قائد اللواء يصرح الى معاريف ، ويعتبر مــا حدث مؤامرة من الشيوعيين على أمن الدولة ..

...... رئيس الوزراء يدعو الكنيست الى الانعقاد . النائبان المعروفان ، يرفعان عريضة ضد ما اسمياه وثيقة ...

... وزير الزراعة ، يصرح لمندوب الاذاعة ، بان الهدف من غرس الاشجار ، ليس مجرد تجميل الطبيعة ، وانما لمنع تسلــط العرب على الارض !

- ٦ -

تحرق النار اطراف « دمايته » ، تتسلق ساقية وتذيــب الشحوم المتورمة على فخذيه واليتيه ، وتطوقــــه من الخصر . تتسامى الى عنقه ثم تتجمد . تهبط كبحيرة من الجليد ، فتحيل الجسد المحروق الى تمثال فحمي متكلس ، والى جثة شظيـــة كثيرة النتوءات والتعرج .

تدحرج رأسه خارجا من التمثال المحروق ، هــاربــا من اللهب والجليد . يخاله يعلو ثم يهبط ، ويخف وزن الدائرة ، فتقفز من قشرة الارض الى الجو . وفي لحظة ارتطام الرصاصــة بقلب البالون الطائر ، تمتد يدان قويتان وتنغرسان في طـــوق العنــق .

صرخ بفزع مخنوق :

ــ يا امرأة !

خيوط مدببة كالمسلات تقبض اطراف لسانه . تأتأ ، جأر ، وعيناه تحاولان الفرار من محجريهما . تخبان في وجهه المفتوح الرعب ، وتخلدان بتحديق حاد متواصل .

ـ احمد منسي سيخنقني الليلة ، اذا لم يكن الان .

لم يسعفه الخوف بنطق الجملة . هرولت زوجته وهي تدق على صدرها وتولول :

ـ ما الذي حدث يا عاشور ؟

التجأ رأسه الى صدرها وخشع .

ـ سيقتلني الليلة !

نفث عاشور صوته في صدرها المطرز ، وتراخت دقـات قلبه ، بينما ارتفع وجيب قلبها . صرخت بفزع ، وعقدت ما بين حاجبيها وهي تطوح صوتها في جوف العلية الواسع .

ـ جاب اجلك هذا المدعو كاتسمان !

امتلأت عيونه بدموع مخنوقة، وغمامة من الدماس تشـد عينيه في محجريهما ، وتفرش امامه رؤية ضبابية .

ـ احسست ان يدا قوية كيد احمد منسي تطوق عنـقي، وتفصله عن جسدي .

ندت عنها صرخة مكتومة وصار وجهها ميدانا فسيحـا للفجيعة والهم .

ـ ولكن النافذة ملساء كقشرة البيض ،

كيف يتسلق احمد منسي هذا الصلع في جدار طابقين ؟ كيف يا عاشور ؟ ثم لا تنسى .. احمد منسي اخذوه نصف ميت.

حدق عاشور بحواف النافذة ، حيث ترف زهرات ذابلـة من الياسمين . قطعت المسافة بين السرير والنافذة ، كمرحلـة عمر مرهق ، وانتصبت بجواره ، وهي تحتضن ذقنها وفكهـا الايسر بباطن يدها اليسرى .

ـ الفلاحون يتجمعون في الساحة والمسجد .

ـ اقتربت منيتي.

ـ ...

ـ سيقتلني احمد منسي الليلة !

ـ قلت لك احمد منسي في السجن .

تأكدت من احكام اغلاق النافذة وعادت الى السرير .

ـ سأحضر الك كوبا من الشاي لترد رأسك .

هبطت درابزين العلية بخفة واضطراب . سمعت قرعا على الباب فتجمدت على المدرج « جاء احمد منسي ، اغلق الباب يا عاشور !» . تسربت شحنة الرعب واحست ان وزنها صار خفيفا كقشة قمح.

ــ تفضل يا ابانا .. عاشور في الطابق العلوي!

اومأ برأسه وجلس . قفز عاشور وهرول نحو يده محاولا تقبيلها ، فسحبها سمعان وقال :

ــ نعم ؟ارسلت في طلبي فماذا تريد ؟

جلس عاشور على حافة السرير ، وراح يؤرجح ساقيه باضطراب ، ويحاول السيطرة على كلماته .

ــ كاتسمان قال لي !

حرك ساقيه وضغط على قبضة يديه المتشابكتين .

ــ كاتسمان ابلغني .

تنحنح وتفرس وجهالقسيس فلم يلحظ اثرا لكلماته .

ــ هو أمرني ان ابلغك .

ازور بالكلمات ، بلع ريقه بصعوبة ، وعيون سمعان تلسعه بتحديق جاف متواصل .

ــ امرني ان ابلغك بضرورة الغاء التشييع .

ــ ....

ــ لا نريد تحويل الجنازة الى مظاهرة ، وتمنع الهتافات !

ــ اعرف واجبي .

ــ هذا جيد ، هذا جيد .

لعنات عاشور ظلت تطارده منذ تجاوز عتبة الباب الخارجي. كان يحس بخيبة الامل ، ومرارة الشعور بالتورط ، والخوف من الانتقام . صعدت (امونة) حاملة صينية الشاي . ففرت فمها دهشة فنكس رأسه :

ــ لقد خرج !

ــ سيكون من نصيب القادم ، سأفتح الباب !

هرولت الى باحة الدار ، وشدت المزلاج ، باشة مرحبة .

ـ اهلا بالشيخ عبد النور .
ـ ...
ـ عاشور في العلية .
صعد الدرج بحيوية وانفعال . التفت الى عاشور واخـــذ يمسح العرق عن وجهه .
ـ اوجز، بعد صلاة العصر سيشيعون الجنازة .
ـ انت ذكي يا شيخ ، وهذا سر اعجابي بك .
ـ ....
ـ المهم الا تخرج انت في الجنازة .
ـ وهل يجوز ذلك ؟
ـ يا عبد النور
ـ اكرام الميت دفنــه .
كانت امونة ترقب الغضب المرسوم على جبهة الشيخ ، وهي تغلق الباب الخارجي ، وتتسلق درج العلية .

- ٧ -

بحيرة من القار ، تنبت على سطحها وجوه كالفطر البري . هكذا كانت ساحة المطحنة ، وهي تمتلىء بالكتل السوداء ، دائرة وساق وتبدو من بعيد كأنها فزاعة عصافير .
ـ اطلقوا سراح ازواجنا .

هتفت نهى عابدي ، المدرسة في مدرسة البنـــات ، فكرر الجمع خلفها بأصوات تفتقد التنسيق والقوة . همست ثريا الى جارتها في السيل النسوي المتدفق :
ـ ليس لها زوج ! فعلام تهتف بحماس ؟!

تزرر العرق على جبهتها . هبطت الملوحة الى اطراف شفتيها، ونهر السواد يلاحق الصوت المبتعد عن ساحة المطحنة ، والمتجــه

شرقا . وعندما شقت سارة بلعاوي ، صفوف النسوة . ورفعت يدها فتدلى الردن وانحسرت الحطة . قالت ثريا لجارتها في المظاهرة :

ـ زوجها ليس له ارض ، فعلام تهتف بحماس ؟

ان كل هم هذه المخلوقة ان تحصل على ماكينة خياطة !

اتكأت ام فارس على كتف جارتها، فاشرأبت العيون وزغردت خديجة امرأة الحداد جبران . عيون ثريا تشع كراهية وهي تهمس لجارتها :

ـ عندها حق الارض ارضها، وما ذنب القرية ؟

مدت المرأة المتلقية يدها ، وصفعت وجه ثريا ، فتسابقت الايدي الى وجهها وصدرها ، وهي تهرب عائدة الى القرية .

ـ سنحقق معهم ثم يعودون .

قال كاتسمان بصرامة ، فسقطت جملته كحجر في حوض ماء . ارتجت دائرة الغضب وتوالى الضجيج .

ـ تسقط سياسة لطش الاراضي .

الايدي تتسابق الى الحجارة ، والجنود يدفعون نهر الرؤوس الى دائرة المطحنة .

□

انفتحت كف المسجد ، فتدفق نهر الرؤوس الى الخارج . تزاحمت الاكتاف وتوالدت ضخ الاحساس بالانقباض ، وفوق غابة الرؤوس حلق النعشان ، وحطا بين الايدي المفتوحة للثواب . اصر حمدان بدران ان ينال شيئا من الاجر ، فجاء يجر عصاه ويتقدم صفوف المشيعين .

شبان القرية اغتسلوا بالغضب ، وحقنوا اسرهم بعشرات القصص الصحيحة ، والمختلقة ، حول كاتسمان وعاشور ، وظل معظمهم خارج المسجد، بينما اندس الباقون بين المصلين ، يقلدونهم بصمت ومهابة .

خرج النعشان . فتطاولت الازهار البرية ، وجبران يطرق

الحديد المحترق ؛ ويقدم للارض المحاريـــث الحديديــة المدببة والقــوية .

ـ الليلة عرسك نيالك .

قال موسى بدران ، بصوت حنون كالدمع الصامت الـذي تحدر فوق أرنبة انفه ؛ فردد المشيعون كله :

ـ يا عزيز

ـ الارض اتحنت كرمالك

ـ يا عزيز

تلمظ ، وتذوق طعم الشعار ، ونكهة الجفاف في حلقــه. بلل شفتيه، ببقايا الريق ، ليقلل من كرمشتها وانكماشها حول جوف الفم .

ـ الارض بنرويها بالدم

ـ يــا عيسى

ـ وبنطمر همك فوق الهم

ـ يا عيسى

عاشور ما زال على النافذة ؛ يتلقى طعنات الاصوات بجناح مهيض وكبرياء متهدم . وامونة لم تتمالك نفسها ؛ فــانهــارت ببكاء متواصل حتى النهنهة .

الورقه الثانيه

جذور السنديان

- ٨ -

ـ دع الـدم يا أبت سيغسله المطر
ـ اريد الاقحوان ان ينبت في منديلي
ـ وحجـارة البسـتان .؟
ـ دم المسيح يستوطن حجارة القدس
ـ وكالاقحوانة كان
ـ في البرية اعطى تلاميذه الحكمة واقتسموا الرغيف
ـ وجدوه مقتولا وفي يده حجر
ـ كان طفلا رائعا !

رفع منديله عن الحجر ونقر على ظهرها :

ـ يكفيك نحيبا يا ابنتي ! طفلك كان رائعا !

تطلعت بعينين مبتلتين بالدمع .. « كان باب السيارة الـى يمين السـائق مفتوحا . ولاح منه وجه جندي منتفخ الخديـن ، يرفع يسراه الى الاعلى ، وبين حيـن وآخـر يطلـق رصاصة في الهواء » ، تنهدت وصمتت .

فرفض احمد منسي وأمسك بيدها ، فرفعت الغطاء عن صينيتها المملوءة بالقطين والزبيب والبيض المسلوق وقالت :

ـ بمقدار ما تحبه تأكل عن روحه !

وتطلعت الى القسيس واردفت :

ـ كل شيئا عن روح عيسى يا ابت .

فأجاب مداعبا :

ـ اكلت كل شيء ولا ينقصني سوى الفطير .

ـ يقصف عمري ! فاتني ان احضر فطيرا بالحلبة وزيت الزيتون ، اذا جئت يوم الخميس القادم ستجدني محتفظة لك بواحدة شهية .

ـ اؤكد لك ان عيسى كان ولدا رائعا !

نهضا وسارا متجاورين ، وام عيسى تمسح بقايا دمعة على خدها . عميان القرية وشحاذوها تحلقوا القبور ، وراحوا يتمتمون وينتظرون المكافأة . وما زال الندي يختبىء في كؤوس الازهار ، ويتمدد على مقاعد الحجارة وشواهد القبور .

رياح تشرينية خفيفة تلفح وجه احمد فيغالب اصطكاك اسنانه ، وارتعاش نصفه العلوي .

ـ كان عليك ان ترتدي معطفا .

ـ بعد قليل سأذهب الى جهنم .

ـ تعال نسلم على هنية .

استدار فلمحها جالسة تفكر . نهضت وسار ثلاثتهم .

قال الاب سمعان :

ـ خميس الاموات وتزويج الارامل ، عادة فلسطينية قديمة، وهي بلغتكم ديالكتيك العادات !

وارت هنية وجهها بالطرحة البيضاء وكست الحمرة وجنتيها .

ـ الزواج سنة الحياة يا ابنتي ، على الاقل تكسبين نصف دينك ، ومن خلاله نصفك الآخر .

ـ عم تتحدث يا أبت ؟

ــ اقول اذا امطرت فسيباشر الفلاحون حراثة الارض !
ــ عم تتحدث يا ابت ؟
سأله أحمد منسي باستغراب ودهشة .
ــ عن المطر !
اطرقوا رؤوسهم ، وادبر الندى بخفين مثقلين ثم صار خفيفا كالريح .

□

« لماذا يعشق الفلسطينيون المقابر ؟»
« لماذا يقدسون الموتى ؟» .
جمع كل ما وقع تحت يديه واستخلص فرحا :
ــ انهم متعاطفون مع الماضي ، وفقدوا جذوة الاحساس بالمستقبل .. هذا عظيم ، عظيم !
صفق ودار دورتين حول نفسه ، وهو يتأمل وجهه في المرآة المثبتة على الجدار :
ــ لهم الماضي ولنا المستقبل .. اذن فلا دولة في الجوار، ولا حكومة داخل ملابسنا .
نط كاتسمان فوق كومة من الحجارة فبدا مضحكا وهو يسقط على الارض . نفض قليلا من الاوراق وصفقها على فخذه، وجندي الحراسة ينتظر امرا ما .
ــ انهم يعشقون القبور .. أليس كذلك ؟!
ــ من هم ؟!
صاح الجندي وانتظر الاجابة دون ان يرفع عينيه . ومن بعيد كانت المقبرة تنغل بالزوار .

□

منذ حادثة المداهمة والشيخ عبد النور يتحاشى الاختلاط بأحد ، ويلتصق بالمسجد ولا يغادره الا مدعوا . شرنقة صغيرة حبس نفسه بها وغدا مثلا .

كانت خطب الجمعة تزخر بكل ما هو كفاحي في الاسلام، وفي الدعوة الى النضال ضد الظلم وضد اعداء الدين ، وتحولت

الخطب تدريجيا الى ان استقرت على الواجبات تجاه الله ولا شيء غيره .

ومع ذلك لم ينج الشيخ عبد النور من اقاويل ارناؤوط. صاحب المقهى ، الذي اقسم بالطلاق من زوجته ، وامام جميل وادي ، انه شاهد بعينيه « اللي بكرا بوكلها الدود » ، الشيخ عبد النور يشرب الخمرة مع احمدمنسي والاب سمعان في البساتين ، وانه لا يستبعد ان يكون الشيخ « مدسوسا من الشيوعيين » ، وان « وزارة الاديان لم تنتبه الى افكاره الحمراء تحت العمامة . آخ لو في رجال اوقعنا عريضة تطالب باستبدال هذا الشيخ » !!

كان ارناؤوط يستند الى رواية عبوره ، حارس المقبرة . فقد لحظ عبورة ثلاثة اشخاص يتحدثون في البساتين ، وعرف منهم الشيخ والقسيس واضاف الثالث على مسؤوليته . ولان عيونه نصف معطلة ، أو كما يسميه الحلاق طارق ابو وردة « الادكش » فانه لم يتبين الدكتور خالد النمر ، فاستبدله بأحمد منسي ، حيث يعرف علاقته الوطيدة مع القسيس . وعندما اخذوه الى الدكتور ليعالجه من المغص ، تأكد له ان الدكتور ما زال يرتدي نفس القميص ، وخشي من العقوبة ، فلم يبلغ ارناؤوط .

المصادفة وحدها رتبت هذا اللقاء الثلاثي . الشيخ عبدالنور هرب من اسئلة الفلاحين ، واراد الاختلاء ، فلم يجد امامه سوى البساتين مكانا للخلوة والراحة . القسيس سمعان اعتاد تمضية الوقت تحت الاشجار ، «فالشجرة كائن حي لا يؤذيك كالانسان»! والدكتور خالد النمر ، ما زال تحت وطأة اجواء حيفا ، الحزب والبحر والاسرة ، فجاء الى الشجر ليسترد ذكريات صافية ، وليرتاح .

ــ احذر يا دكتور .. كلاب كاتسمان جاهزة للنهش .. ألم تسمع بقصة جبران ؟!

همهم ولم يجب .

ـ قتلوه يا سيدي بطريقة فظيعة .. جاءته رصاصة طائشة من تمرينات الجيش على المناورات بالذخيرة الحية !

ـ ....

ـ فماذا تفعل زوجة الحداد جبران ؟ هل تشكو الجيش الى حكومة الجنرالات ؟! مات جبران .. وتم حفظ القضية والقاتل مجهول . احذر يا دكتور ، الرصاص الطائش لا يميز بين الدكتور وجبران .

تحذيرات أحمد منسي لم تكن كافية لتصد رغبة الدكتور في الاختلاء . جلس ثلاثتهم بانزعاج صامت ، وكل واحد ينتظر تفسيرا من الآخر .

الشيخ عبد النور قال وكأنه يحادث الشجرة :

ـ لقمة العيش هي من اعظم انواع الجهاد !

طاقة من الكراهية غمرت صدر الدكتور وكاد يصرخ ويشتم ويلعن ، لكنه حبس رغبته وحادث شجرة اخرى :

ـ بحر حيفا أصيب بالحصبة الالمانية !

لم يواصل الاب سمعان لعبة تكسير كتل التراب . رمى ما تبقى بيده وقال :

ـ لماذا نبشوا الرماد ؟! لماذا هاجموا هذه القرية المسالمة ؟!

لقمة العيش ، بحر حيفا ، الرماد ، دوائر من الاختناق تمتزج بالريح والنيتروجين . اذا صهل الحصان بكت ! واذا خار الثور بكت ! واذا بكى الليل بكت . دمعتان كبيرتان تتدحرجان من العلية الى حوش الدار ، فتغمغم ام فارس « سيعود » .

منذ جاء الدكتور والقرية تهمس انه نسخة، طبق الاصل ، عن رضوان ، اوفده الحزب ليتولى قيادة القرية في فترة غياب ابي فارس . فلماذا تمشي العيون معه ، وتتعلق به ، وتحبه ؟

القرية نفسها وقعت في الارتباك .

الأنه طبيب ؟!

كل قرية مهملة بحاجة الى طبيب .
الأنه من الجماعة ؟
كل القرى تشهد انهم زبدة هذا الواقع المر ، وهذه الارض الطيبة .
الأنه طيب وصدوق ؟
منذ متى تنسى السنديانة مهبط رأسها ، وتغرق في الحزن حتى الرقبة ؟!
في ساعة متأخرة من الليل ، كان يخرج الاب سمعان ، ضاغطا على خاصرته ، وهو يتلوى من المغص الكلوي ، ويلعن تأخر الطب وتقدم الصواريخ .

لقمة العيش ، بحر حيفا ، الرماد ، ست شبابيك من النرد، من « اليك » الى « الشيش »، يستريح على قاعدتها تاريخ القرية، وتستطيل الاعشاب في الممرات الترابية . في كل وجه ، يثور لاعب ويحلل المسألة منذ برودة الصخر وحتى توقف التعذيب :
ــ الحيط الواطي كل الناس بتركبه .. لو اطلنا سقوف منازلنا لما تجاسروا علينا .

التقط احمد منسي وجه «الشيش» وحول الفرن الى منتدى عن السجن ، غلاء الاسعار ، الدول العربية ، التضخم . ولم يكن يهمه فيما اذا كانت المرأة المستمعة تفهم ما يقول ام لا . كان يمارس حلم يقظة بصوت مسموع ، ويرسم حدود وطن اجمل واسعد ، وخال من الحرب والقهر والاحتلال .

عندما دخلت ثريا ارناؤوط تحمل طبق العجين ، حملق غاضبا وقال وكأنه يحكي مع اقراص العجين :
ــ قليل الشرف من يدعو كاتسمان في منزله .

لم تجب ثريا فغمزت امرأة :
ــ هذه اشاعة ضد ارناؤوط .
ــ اشاعة ؟!

قال بتحفز واستدار :
ــ لا يدعو الكبش الا كبش مثله .

فاحمر وجه ثريا وقالت وهي تنسحب :
ـ من قلة ما يصح لكم !

فردت امراه ساخره :
ـ على ماذا ؟ حمار ودعوه على عرس ! فاما لنقل الحطب او لنقل المـاء !

□

الرطوبة تلفح وجهها . وهي تنقل الخطى بين القبور ، وتحاذر الا تطأ قبرا . القرية خلفها نتوءات رمادية تغرق في الدفء والنوم. قالوا لها : وكانت تؤمن بذلك ، ان الزيارة قبل طلوع الشمس ، تتيح لفاعلها محادثة الميت . فهو يستمع ويسمع وربما يتحدث احيانا .

ها هي قبل طلوع الشمس ، تحتضن صينيتها ، وتمضي الى المقبرة وهي تحمل حسرتين : واحدة على رملتها المبكرة وهي صبية ، واخرى على تلك الرصاصة الطائشة التي قتلت زوجها . صحيح ان بصمات المظاهرة ما زالت على رأسها ، فجوات في الشعر بدت وكأنها جزر صغيرة من الصلع . ما هم اذا كانت الحطة لا تفارق رأسها !

الحسرتان العلنيتان تضغطان على العيون السوداء الغامقة لتفعل شيئا ، أي شيء .
ـ جبران !

صرخت ، فتلاشى الصوت في القبور النائمة في الندى وفي القرية الصامتة .
ـ جبران !
ـ جبران !

بيوت الطوب والواح الزينكو في معسكر الجدناع بعيدة عن الحوار نصف العلني بين ارملة فوق الارض ، وارمل تحت الارض.
ـ جبران !

أصاخت السمع وعيونها تبرق . هبطت وقرفصت فوق

الشاهد برهبة وخوف . كل جسدها تحول الى نقطة دمع كبيرة وهي تهز الشاهد بعنف :
ـ نعم يا جبران ، دمك دين في عنقي ، سأقتل واحدة من الرصاصات الطائشة التي تملأ القرى .
جثت امام الشاهد ، وغرقت في بكاء كالوجع المتقطع .

ـ ٩ ـ

دخل الفرن سادرا . قفز الى الحفرة كأرنب ، ومد خرقة القماش على الملقط ، ونظف بلاط بيت النار . قفزت عيونها وقرضت أطراف مخيلته . مد يده الى رأسه ليتحسس القرقطة. انفتحت عيون موتور السولار فتدفق اللهب الجانبي وتناثرت عيدان الحطب خلفه . نظف الطرحة فبدت كراس غزال بقادم واحد ، وهنية كغزال تمرح في البراري وتطوف الاحراش بقادمين .

(بالغ في تنظيف ذقنه ، وسكب زجاجة الكولونيا على جسده وملابسه ، وارتدى بدلته الكحلية وخرج . فاحت رائحة الكولونيا في الازقة فرمقته النساء بخبث ، وصفق الاطفال ثم هربوا . لمحه الاب سمعان يقطع فسحة الكنيسة فقال مداعبا : « هذه الكمية من الكولونيا لا يضعها على نفسه الا العريس ! ».
« لا والله ، مجرد عشاء» . « اذن تحياتي لآل بدران ».)

قفز من الحفرة وتسلق السلم ثم دلق برميلا من السولار في الحاووز على السدة . كشط بالكفكير بقايا العجين المتجمد على الزلاقة . قذف قليلا من نشارة الخشب خلف عيون السولار المتوهجة . سرى الدفء بجسده وتزررت جبهته بالعرق .

(مشى جذلا واوح بالسبحة في يده واخذ يدندن بنشوة .

عندما اقترب من نهاية الزقاق قابل جميل وادي الذي اغلق دكانه لتود . « اراهن انها ستمطر الليلة .. هذه الريح اعرفها منـــذ خمسين سنة . اذا صفرت جاء المطر بعدها ... اذا قابلت الدكتور صاحبكم ، ليته يتمكن من زيارتنا الليلة .. ارجوك اقنعه بالحضـور .. ابنتي مريضـة ».

رفع ياقة كبوته وغطس رأس جميل وادي كبصيلات الزنبق الاحمر الجبلي النابتة في آباط الاوراق ، ومضى في الزقاق .)

(.. فرد يده وازاح جسده عن المدخل ، فعبر الدكتـور وأحمد منسي . أغلق الباب ورحب ثانية وهرول امامهما . ارتعش شنب ارناؤوط وهو يمد يده مصافحا ويتململ من الكدر والغيظ . مشى بضـع خطوات وقال :

ـ استأذن يا جميل وادي .

رمقه احمد منسي باستهزاء وقال غامزا :

ـ لماذا تعاملنا على طريقة اذا حضرت الملائكة ؟

ارتبك جميل وادي وحك قفا اذنه وتمتم :

ـ بدري يا ارناؤوط ، دعنا نسهر !

ـ مرة اخرى يا جميل .. سأصلي العشاء في المسجد .

التفت احمد منسي نحو الدكتور وقال وكأنه يخاطبه :

ـ يصلي ويحرق الزرع .

ـ ماذا تقول يا احمد منسي ؟

ـ اقول الرجال لا يقاسون بشنباتهم .

ـ الحق على عزيز ياغي الذي علمك الكلام .

غلى الدم بعروق احمد منسي فصاح :

ـ حذاء عزيز ياغي اشرف من رأسك !

ـ يـا جمـاعة .

قال جميل وادي واردف :

ـ اختصروا الشر ودعوا السهرة تمضي .

امسك جميل وادي بكتف ارناؤوط وساقه الى البـاب وهو يقــول :
ــ حقك عندي ، ارجوك اختصر الحديث .

خرجنا من الفرفة فقال الدكتور خالد لاحمد معاتبا :
ــ هذا لا يجوز يا رجل ، دعه وشأنه فالناس يعرفونه . لا يجب ان تتساوى معه .
ــ والله او تقابلنا في مكان آخر لكسرت رأسه .. ولا يجوز الصمت على هؤلاء الاوغاد !

صفق بيديه واشعل سيجارة ، فهبطت قرقطة الارنب، مــن رأسه الى صدره . ثنى جذعه وجثى على ركبتيه ومــد يده في الكوة . تلعبط الارنب وحرك رجليه ورفس ، فأحكمت الامساك به.

(تعال يا تيسير واذبح الارنب . ولمــاذا انــا ؟ . الارنب لا يذبح ارنبا .) (أشرق وجه هنية بفرح غامر ، وهب موسى الــى الباب مرحبا ، فيما وقف العجوز حمدان والدكتور خالد .)

(جلسوا على الفرشات الارضية التي سيجتها المسانــد والمخدات ، وتناثرت امامها علب السجائر والمنافض).

(« اهلا وسهلا .. القهوة يا ولد ! ». قفــز تيسير وعاد حاملا بكرج القهوة . ظل موسى يفرك يديه بقلق . « ربما تمطر الليلة » . نور اللوكس يترامى على حوش الدار ويشيع الدفء في الفرفة . « معنى ذلك ان تستعد للحراثة » . قال الدكتور مجاملا وتطلع نحو احمد وتابع حديثه : « واعتقــد اننا نستطيع شراء تراكتور حراثة اذا شكلنا جمعية » . تبرم العجوز حمدان وقال : « يا دكتور .. لماذا لا نفتح عيادة ؟» ، « فكرة عظيمة » ، قــال أحمد منسي فتلقف تيسير الحديث وقال بحماس : « تنقصنــا يافطة فقط ثم يتحول منزل ام عيسى الى عيادة » . نهره العجوز حمدان بصوت مرتفع : « اسكت يا ولد » . مد يده الى صينيــة المسخن فلمح وجه هنية يديم النظر نحوه . اغمض عينيه وتناول لقمة . « .. المعدة مفتاح قلب الرجل » ، « عقلها ؟ ليس للمرأة

عقل !» . «.. لا خير بامرأة عقيم » . « .. المطبخ وانجاب الاطفال ورعاية الزوج » . «.. المرأة تعمل في الحقـــل مثل الرجل » . « تعمل في الحقل نعم، ولكن ليس مثل الرجل». «فاطمة الجمل». « هذه ليست امرأة. انها أكثر من رجل . المهم نريد ان نسمع رأي الدكتور » . « المرأة كائن بشري !» . « نحن لا نتزوج الجواسيس». « . . وكائن اجتماعي »؛ « استأنسه الرجل » ؛ « ومواطن منتج». « . . للاطفال » ؛ « لذلك يقع عليها ما يقع على الرجل » . «خيبت، أملي يا دكتور موقفكم من المرأة بحاجة الى تغيير . . يا ولد احمل الابريق والمنشفة والصابون » .)

سحب صندوق السجائر المحمص من الكوة واشعل ثانية. عبرت ثريا حاملة طبق العجين . التفت نحوها فلم يقل شيئــا . وضعت الطبق على الزلاقة وغمزت ساخرة :

ــ من القي احبابه نسي أصحابه .

(. . تساقط المطر بغزارة على الازقة واسطح البيوت الطينية الواطئة ، فخمد نباح الكلاب ، وتجمعت السيول في ثنيات الارض المنخفضة وغدت كالبرك الصغيرة . علت أصوات الفلاحين وهــم يتدافعون لصد المياه عن الابار حتى لا تحمـــل الحصى والطمي والنفايات الى خزاناتهم الموروثة . وانهمكـــت المنازل في ترتيب الاوعية لتلقي الدلف ، وفتحت النسوة ملف حساب ازواجهن على مؤونة الشتاء : « ألم أقل ان المزارب بحاجة الى اصلاح ؟ » . « مئة مرة طلبت منك ان تصب السقف بالاسمنت ؛ هذه بدايــة وبداية الرقص حجلان فتحمل » ؛ « الحق عليك منذ شهرين وانا أطالبك بتوفير مؤونة البصل والثوم والفحم ، وانت كــالاصم لا تسمع . الان ادفع الثمن مضاعفا .» ؛ « ماذا ضرنا لو نشفنــا قليلا من البامية والملوخية ؟!» .

اخذ يفرد القرص ويصفه على الطرحة ثم يقذفه الى بــلاط بيت النار ويسحب الاقراص الناضجة اولا بــأول ويشقلهــا الى مسطبة من الاسمنت حيث تتلقفها صاحبة العجين .

(. .الليلة سيفكر طائر ابي الحناء كيف سيخرج من مأزقــه غدا . الليلة سيبتل عشه الطيني الفنجاني الشكل على حــواف

منازلنا . واذا أشرقت شمس الغد ، فستكون اقفاص حمـدان بدران مصيدة له والزرزور الهارب من المطر . وفيما كان طـارق ابو وردة يتابع تخيلاته عن المطر والعصافير ، كان بعض فتيـان القرية يفتشون الاعشاش الفنجانية والمقببة) .

(.. « أمام سهرتنا قضية رئيسية واحدة. تقدموا خطوة فحولوا المعسكر المؤقت الى معسكر دائم . » . شمر توفيق السعيد عن زنوده وصاح : « لا يفل الحديد الا الحديد ، ففرق الساهرون في الضحك ، اذ غالبا ما تكون تعليقاته مادة مثيرة الضحك لمزجها بين السخرية والنكتة بشكل دائم ، مما شجعه على المضي « احشر القط يتحول الى نمر » ، فعلا الضحك والضجيج ، عندها انتبـه الى الدكتور خالد النمر وقال : « المعذرة يا دكتور .. لا اقصد والدك » .

(.. « قريتنا ليست الشيخ يونس ولن نسمح ان تقام عليها الجامعة العبرية »، « يا رفاق لنبدأ »، « لن نسمح لهم ان يشيدوا فندق هيلتون على عظامنا مثلما فعلوا بمقبرة عبد النبي في يافا»، « اذا لم توقفوا التعليقات سنرفع الجلسة »، « نحن كالحشائش كلما يقصونها تنمو مرة اخرى » ، « وكالسرو كلما مرت موجـة زمن ازداد مساحته ثباتا » ، « لنعد الى الموضوع الرئيســي »، « ايها الرفاق لنواجه الخطر المباشر » .

حملت ثريا الطبق ، ولفت الاقراص بثوب قديم . رفعتـه بعتاب وخرجت .

نهض متثاقلا الى صحن العلية . فرك عينيه وشق انبلاج الفجر برؤية ضبابية ، نحو البساتين الشرقية . فرك عينيه وحدق بالمساحة التي قطعت منها الاشجار ليلا ، وبني فيها بيتان من الزينكو :

« لقد بدأوا الاستقرار على صدورنا .. اليوم جدناع .. وغدا ... »

هرول الى قاع الدار وجهز غلاية من القهوة ، جلس في العلية يحتسي القهوة ويفرف بعينيه حزم السنديان والحور . كانت قطرات الندى تمتد كفرز التطريز . وتطوق الصدر بمستطيل دون سقف . ومن رأس الكتف تهبط الخيوط الملونة الى أسفل ، ثم تستدير فتلف جسد الخيزران وهو يتلوى بين الحور . ركض جذلا وقذفها بحجر صغير ، فصرخت بدلال ، ووقفت مستسلمة بانتظار صدره المفتوح . تعانقا ، وجلسا متجاورين .

ـ هذا السنديان كاتم اسرارنا .
ـ ما دمنا نملك المقدرة على الفرح
ـ ما الذي يريده السرو حين يتسلق الافق ؟
ـ يا ام فارس هذه البساتين لا تعرف الهزيمة .

هز رأسه فتساقطت اوراق الحلم ، وسكب فنجانا جديدا، واحكم رباط « الدماية » . تفحص الاسطبل وساق الثور الى الخارج .

القرية ما زالت نائمة بين الغيم وخيوط الفجر . ودبيب أقدام الفلاحين وهم يحملون زواداتهم تخرج من القماط وتبتعد.

شق ابو فارس الطرقات الترابية وسط سقسقة العصافير وارتطام اوراق الاشجار الذي أشاع جوا مشبعا بالخلاخيل .

وظلت عيونه تستنطق الاشياء جميعها .. وتذوب فيها .

« هذا الجسد البني تجمد على بركة من الدم وصار ترابا. انه مقبرة عالمية من السحنات المختلفة ومتحفا للسيوف . كل الزواحف فقدت جحورها حين ضاعت في التربة الطينية ، وكل متوحش او ذي ناب فقد حيز قبره وتعرى من السيف وصار سمادا للاتين ».

« انت يا ثور ستغدو مثلهم . ستموت فوق الطرقات وستذوب في الجسد البني كعمود من الملح . »

« لماذا نعشق شجر السرو ؟

لانه مثلنا ، يعيش ثلاثة الاف سنة ولا يملك جواز سفره الخاص . من يثبت ملكيته للريح يثبت ملكيته للسرو .. ولنا ».

« الاصل زيت مشتعل في صحن صخري ، وفتيلة سراج في قبو صائدين . لا الريح استكانت الصخر ، ولا الصخر سكت عن خدوشه . وظل صحننا الطيور والزواحف والحيوانات » .

« عبروا الصخر ، وعلى خد الماء استراحوا . ولانهم يكرهون الصمت ، خرجوا مع الينابيع وطافوا البرية ماء رقراقا ، يسقي الزرع ويغطي أرجل العاشقين والغاصبين ». « من يثبت ملكيته للماء ، يثبت ملكيته لنا ! يغلقون عين النبع ، فيفتح النبع لنفسه مسربا بين غابات الزيتون والبلوط والصنوبر ».

« ونحوم حول دائرة الطباشير، نلتقط اقدامنا والاقلام الملونة ، فيبزغ عهد الجنة الحلم ، الجنة النائمة على سفح الكرمل»

« من شجرة التوت قطف ثمرا وغطى عورته . هبط كهف السخول ونادى بصوت جهوري قطع براري الاردن .. فتوقف الرعاة عند رأس الناقورة ، صاح آدم ، ولم تكن حيفا قد ابتدات احتضان التل ، فنفرت الوعول . صاح آدم ، فصار سديم الماء حقلا من البلح والبرتقال ، وخرجت حواء من كهف الطابون . وبين الكهفين ظل ينبوع الماء يتدفق .. يتدفق بغزارة . »

فتجزئيه فتدفقت صحراء ثلجية قاحلة ، وامتدت قنوات

الرمل والجليد الى رأسه . ففرز رأس المحراث في التربة، وفتح وجهه الشمس. تساقطت ظلال الغيوم الراحلة على البقع الارضية، واستسلم الثور . امام اثلام الارض وغناء ابي فارس .

ـ الى اين يا اخوتي ؟

ـ كلها اسبوع ونعود الى ارضنا ؟

ـ الى أين يا اخوتي ؟

ـ تركونا دون تسليح فما عساه يفعل الاعزل ؟!

ـ المستنقع ببقائه يصبح مانعا مائيا ، كونوا مستنقعا راكدا ولا ترحلوا .

●

منذ فقد الفرس وهو يسمي زوجته بالفرس . ولا يدري أن كان أدرك في لحظة تأمل ، ان الفرس ماتت ، ولا يليق ان تسمى زوجته الوفية الشجاعة بالفرس الميتة . وعلى سبيل الدعابة ظلت الفرس في قاموس مفرداته . اين الفرس ؟ فتدرك النسوة ان توفيق السعيد يبحث عن زوجته ، فتتطوع واحدة وتصيح :

ـ يا سارة تعالي ، الحصان ينتظر !

كانت « ام الفحم » كمشة من الاصص الفارقة في بحر من الاخضرار الممتد ، ومستودعا للمفاحم التي برع بها الفلاحون ، وخاصة توفيق جد توفيق السعيد الذي لقبوه بالفحماوي . وعلى عاتق الحفيد كانت تقع مسؤولية التمييز بن « ام الفحم » و« فحمة » رغم وقوعهما في منطقة الشعراوية .

ـ شعراوية يا شباب .

رمقته سارة باعجاب وهو يتقمز الى الساحة الترابية ويلوح بالمنديل المعقود في يده اليمنى . حلقة قوسية يتوسطها عازف اليرغول . وتحيط بها عيون النساء وصراخ الاطفال وهمهمات العجائز . منذ اجيال وطابع الاحتفال في القرية الفلسطينية لم يتغير كثيرا . ومنذ ثلاثة ايام حيث خرج ابو فارس من السجن، والقرية تنتظر « التعليلة » .

امتدت العوارض الخشبية على طول الساحة امام منزل ابي فارس . كل عارضة تستند في الاطراف والمنتصف على قوالب الطوب لتبدأ اخرى . وفي منتصف الساحة التي رشت بالماء قبيل الغروب كانت الدبكات تتوالى ، تحت انوار اللوكسات . واليرغول يلاحق جفرا في التلال وعلى سفح وادي الصرار .

اسندت ام فارس الطبلة على وركها ، وامسكت حافتها العلوية بباطن يدها اليسرى . نقرت فدوت السحجة بايقاع متكرر موحد . ضربتان برؤوس اصابع اليد اليمنى في منتصف الطبلة. وثالثة على الحواف ، تتلوها نقرة من بعض اصابع اليد اليسرى .

وقف جورج حنا ، رئيس النادي ، واشار بيده .. فانتبه الجميع .

لو خافت عكا من الشط
ما وقفت على الميه .

نسي جورج حنا ما سيقوله ، فكرر اللازمة مرتين وسكت، وظل صوت الطبلة طريا ، حيويا ، يطرد النعاس في العيون العطشى للفرح ..

●

اعتاد الفلاحون تناول الافطار تحت العريشة في ارض ابي فارس ، كانوا يتبادلون الاحاديث عن بعد ، ويتناوبون العتابا والميجنا . عند الضحى ، بدات النسوة في التوافد وهن يحملن الاباريق الفخارية واباريق الالمنيوم وزبادي اللبن المخيض والحليب.

فسحة الارض بين الفلاحين ، امتلأت بالزيتون « رصيع » ، و « حوس البندورة »، والزعتر بالزيت، وعدة رؤوس من البصل، ارغفة الطابون والفرن ، حفنة من الفلفل الحار ، صرة من الملح، وتسميات اخرى « مزنرة » ، برع بها توفيق السعيد ، حيث يلف اوراق البصل الاخضر على الخبز الحاف ، ويأكل بسعادة وارتواء ! « مكحلة » ، أكلة موسى بدران ، يفرد قرص الخبز ويرسم في منتصفه خطا من الزيت والزعتر ، يطويه ثم يلتهمه

بنهم ! « متراليوز » . يدخل الزيتون من الجهة اليمنى ويخرج رشا من الجهة اليسرى . ويقهقه الفلاحون وداود مرعي ، يواصل الالتهام على طريقة الرشاش الانجليزي .

ـ حرثت نصف الارض ، غدا سأكمل الباقي ، آه لو ملكنا التراكتور !

ـ ولماذا ؟ الثور انظف !

ـ وما يهمك انت ؟الارض تخص الثور والثور يناسبه !

ـ لا تختلفوا .. نحن لا نستطيع شراء هذا الثور الصناعي .

●

تطلعوا الى الزقاق ، ولمحوا الدكتور خالد النمر ، ملفعا بكبوته الطويل ، ويسير الى جانبه طارق ابو وردة حاملا شنطة الملابس .

ـ القرية بدونك لا تساوي بشلك واحد .

قالت ام عيسى ، فضحك الدكتور وضوء الفجر يتابع انتشاره .

ـ عليك انتفرحي لانني اخليت لك المنزل .

فقال طارق ابو وردة :

ـ يا عمي شو رأيك توخذ هالصالون وخليني أشوف وجه ربي !

انفجر الجمع ضاحكا وهم يستذكرون شعر العبيط ياسين الذي لم يغتسل منذ سنوات . وتخيلوا طارق ابو ورده ، يركله على باب صالونه وهو يلعن اليوم الذي تعلم فيه الحلاقة .

ـ يا جماعة وبعدين مع ابن جنيلة ؟

قال الدكتور مستغربا تأخر السائق .وفيما رد احمد منسي « هذا خم نوم » ، قال طارق ابو وردة :

ـ انا راح اجيبه بالفرشة ، خليه يكمل نومه عالطريق .

ـ اذا هيك .. خليه نايم في بيته احسن لي .

عندما جاء السائق « زي الديك المعوص » كما يسميه ابو

وردة ، كانت حلقة المودعين قد اكتملت ، دس الدكتور نفســـه بجوار الســائق ، واختفى بين عيون الواقفين وغبش الفجر .

●

الحاج امين ماضي ، رجل فوق الارض واخرى تحتهــا ، عين على الارض واخرى تجس الاخبار، وتتجشم عناء مطاردتها، بحثا عن الاصول . كتلة من اللحم المخضرم ، تنجذب بآلية ما ، نحو الشـائعات والاقاويل والاخبار ، يتدحرج خلفها ويعود باشــا، كمن ملك اعادة الاعتبار لجسده وعمره .

ليس صائبا ما يقوله عنه حمدان بدران ! ماذا تعني لفظــة « ترانزستور » لعجوز هرم مثل الحاج امين ماضي ؟ لا شيء، فهو لا يصنع الاخبار ، ولا يوازي بينها ، بل يطاردها لتبث على نطاق فردي ضيق ، للذين يملكون صدرا كبئر يتسـع لكل الاسرار، ولا يبوح بغير الصمت .

الاطفال التقطوا تعليقات الاهالي ، واخذوا يركضون خلفــه بشيء من التهذيب ، وهم يهتفون :

ــ خبرنا يا حاج امين
عا اللي بــاعوا فلسطين

يلتفت او لا يلتفت ، من الصعــب ان يتذكر انـــه استدار وهمس لهم :

ــ عندكم للسر بير ؟
ــ بير غميق ما له قوار !
ــ باعوهــا الحراميه
عربية وافرنجيــه

كح وتنحنح ، فالتفت نحوه الجميع :

ــ هل سمعتم بالذي حدث في الامس ؟

توقفت الايدي ، الافواه ، العيون ، عن مضـغ الطعـــام ، والحاج امين ماضي يلتفت حوله خائفا :

ــ اقصد ما الذي حدث ليلة امس ؟

ـ اكمل يـا حاج ..

ـ وجدوا احد الجنود مقتولا في البساتين .

لطمت سارة بلعاوي ، على وجهها وقالت :

ـ يا للمصيبة ! من فعلها ؟

ـ وسمعت ان دورية دخلت القرية لتبحث عن الفدائيين ؟!

ـ في قريتنا ..؟!

قال موسى بدران باستغراب ودهشة ، وابو فارس يستمع بانتباه ووجوم .

ـ هذه خطة مدبرة .

قال مفيد مرعي ، فأردف توفيق السعيد :

ـ والغريب انها متوافقة مع بدء بنائهم للمساكن في المعسكر .

ـ اسمعوا .. هل سمعتم ؟.. اقصد فاتكم ان تسألوا من الفاعل ؟!

ـ هل تريد ان تحرق اعصابنا يا حـاج ؟

ـ لا احد يصدق .. اعتقلوا خديجة زوجة الحداد جبران .

ـ .. لنعد الى القرية .. خديجة !!

- ١١ -

ـ ا ـ

لا لون لوجه خديجة .

البؤبؤ جسد مقتول على ارض كابية رجراجة مثل سطح بحر ميت . الجفنان اخدودان بنيان يمضيان الى الصمت .

امسك اليعازر الشفاطة وكتم انفها وفمها حتى لا تصرخ. الفم اختفى تحت الشفاطة والوجع ، وعندما خرج من التحقيق، سدته البقع المزرقة والمحتقنة ، وغدا نافذة مغلقة .

ربط اليعازر يديها الى الخلف وشدها الى الاعلى فتخلع الكتفان .

ـ ب ـ

كان حبرون واحدا . تكتب الفصول على جسده لسعة البرد ووهج تموز . هنا تستدير السنة ، ويمضي العاشقون على جذوع الاشجار اسماءهم وينتظرون الزمن الاتي .

كان يعشق جذوع الاشجار ، وكتلاميذ المدارس حاول ان ينقش اسمه واسم صديقته على اكثر من جذع شجرة بلوط . وطالما تمنى ان يتسع له الوقت ليتعلم الحفر على النحاس ، وفتح معرض صغير للانتيكا .

خرج الى البستان بمحض ارادته ، ولعله كان يبحث في الليل عن شجرة جديدة لم تحمل اسمه . ولم ينتبه احد في القرية الى شريك حبرون في هذه الهواية . من يتوقع ان يكون عبورة ، حارس المقبرة ، هو الذي يترك رسما على الاشجار يشبه حروف اللغة العربية ؟ مدا ايديهما يتحسسان جذوع الاشجار، فتلامست اطراف اصابعهما ، ونفرا خائفين .

أيهما القاتل او القتيل ؟؟

ـ ج ـ

لماذا انتحر حبرون ؟!

كان حالما بصرة مال تتكاثر بالانشطار حتى تغطي الارصدة. باسم يبدأ بالاعلان عن فقد جواز السفر وينتهي الى الاغلفة . بحوض من البصل يتمدد الى مزرعة من البطيخ .

كان منتفخا بالاماني الى حد الورم . يقف على نافذة غرفته، فيلمح بئرا مهجورا ، ومقبرة خاوية ، وارضا بلون النبيذ ، تتمازج فتنداح قرية جديدة يشير اطفالهـا باعتزاز : ذاك المؤسس حبرون !!

لعله في لحظة ما ، قرر ان يصبح ملكا على جسد يتسع اجسمه ، وان يقذف بكل ممتلكاته الى الهاوية !

ـ د ـ

تكذبين ايتها الدابة !

الصهيونية التي حملت حبرون من فراشه في الضباب ، كانت مشروع توافق بين عدد اصابع يديه ، وبين اعوامه العشرة التي قضاها متشردا . كان مشروعا ان يتدلى من نافذة مفتوحة على الاسفلت ، وان يبصق على الشارع ، او ان يقذف بنفسه من الدور التاسع ، فيوزع جسده على المارة ، ويرسم بدمه علامة الاستنكار .

لكنه جاء .

كل شيء يخفت امام هذه الحقيقة .

اذا تحول المجيء الى ضباب ، والصخر الى جثة ، تكونون قد نجحتم في حشرنا بين زاويتين . كونوا ملحا وذوبوا في مسام الارض تختفي المشكلة !

ايتها الدابة ! لماذا تتحملين وزر جريمة لم ترتكبيها ؟!

ـ هـ ـ

تكذب ايها السيد !
سأبني افتراضا واحتملني ايها الضابط .
لو قتل كل واحد منا جنديا واحدا ، لقتلنا ربع مليـــون جنــدي !
هكذا ، بجملة واحدة ، نهدم اساس الدولة .
....
حسنا ، لا تحاول الضغط على كـــاحلي ، سأمضي فـــي الافتراض . لنقل ، كل عشرة منا يقتلون جنديا ، لارحنا ارضنا من عناء خمسة وعشرين الف جندي .
ايها الضابط اعطني كلمة شرف والا توقفت .
... كل مئة يقتلون جنديا ،
كل الف يقتلون جنديا ،
كل عشرة الاف مواطن ......، اقتلنا خمـــة وعشرين جنديا فقط !
انا خديجة زوجة، الحداد جبران ، قتلت ، نيابة عن عشرة آلاف مواطن ، جنديا واحدا ! انا قتلت حبرون !

ـ و ـ

خديجة ! زوجة الحداد جبران !! قتلت الجندي المنـــاوب في الحراسة الليلية ، المسمى حبرون !!!
غريب امر هذه المرأة !
وغريب امر هذا الرجل !
والحدث غريب .
اتخيلها وهي عائدة من المقبرة ، تحمل صينيتها الفارغــة، وتقسم بشرف العشرة ان تكسر رأسا من الرؤوس الطائشة فوق البراري .
لعلها خرجت في الليل كقنفذ يتدحرج في البستان ويخفي رئتيه عن المارة . تمشي كالموجة في قلب البحر ، وكشجيرة من

السواد تركض في العتمة . هجمت ، فندت صرخة مكتومة ، وصفقت أوراق الاشجار ، وظل القنفذ يتدحرج في البستان .

وعندما وصلت الدورية ، خرج رأس وسكين ورئتان واعلنوا :

نحن الثلاثة قتلنا ، عن سابق اصرار وترصد ، هذا الجندي!

هذه هي الحكاية ، كلها !

ـ ز ـ

الايام الصعبة ودورة الملل ، تخنقان الحيتان ، فكيف تتنفس خديجة في هذا الحوض العائم ؟!

في الصيف ، تدور في البساتين وتجمع الحصاد وتنتظر الشتاء .

وفي الشتاء ، تصنع طبقا ملونا من عيدان القمح ، وتغزل جرزتها وتنتظر الصيف القادم .

لا كور الحدادة ، ولا مكوى الفحم ، استطاعا ان ينقذا خديجة من الفراغ والملل والاحساس بالغبن .

ما الذي تفعله أرملة في هذا الليل البور ؟!

.. لعلها كانت تتمرن على البقاء !

ـ ح ـ

« ليس من حق خديجة ان تنوب عن القرية في قتل الجندي المناوب في الحراسة ، فالمستقلون ليسوا حزبا ، ليذهب الى الجحيم حزب الاستقلال ، وعصابة ميكونيس ، وشلة الشيخ ربيع ! اتذهب الى الجحيم النظرة القائلة بأن خمسة وعشرين شخصا ينوبون عن ربع مليون » .

....

« مدت يدها من كوة لا تتسع لغير اليد ، وقذفت حجرا في وجه « الحكومة » ! ملكت الجرأة لان تضع حدا فاصلا بينها وبين التأقلم مع الدولة !

مدت ذراعها وفتحوا في ذراعها كوة من الدم .
هل ربحت دمها ام خسرته ؟!
اوه .. ماذا اريد ان اقول ؟
هل ادين خديجة ام اقف معها ؟!
خديجة اثارت الاسئلة .. ومضت الى السجن ».

ـ ط ـ

لماذا لا يكون احمد منسي ؟!
عندما حملوه مهشما من الفرن ، كان يتمتم بالثأر . لست متأكدا ماذا قال ، لكنني اجزم انه توعد الجنود .

وفوق ذلك ، فأحمد منسي يستطيع ان يصرع ثورا هائجا، أو بغلا قبرصيا . انه الاقدر على اوي عنق رجل وطعنه حتى الموت .

ولا تنسوا ان احمد منسي اعتاد ان يمضي الوقت في البساتين حيث وقعت الحادثة . انه هو ، وربما هو وحده ، الذي نفذ القتل !

ـ ي ـ

لماذا لا يكون موسى بدران ؟
ذاك الصامت الابدي الذي يتكلم من يده . انه الوحيد الذي يستطيع ان يقتلَ فيلقا ، دون ان يشتبه به أحد .

اذا غضب في المنزل كسر الاواني ، و.. في الحقل يطرق النير حتى يلويه ، .. وكان لا يملك غير جسده ، فانه يلطم وجهه حتى يدميه !

الماء الصامت يخيف ، واللسان الصامت يخيف ، والاصابع الصامتة قادرة على ارتكاب الجريمة .

آه .. فاتني ان اقول ، ان حبرون هذا هو الذي اهان شقيقته هنية بدران ، عندما اقتحم الجيش القرية !

ـ ق ـ

لماذا لا يكون توفيق السعيد ؟

الضربات المزرقة على الظهر . تؤكد ان القتيل ضرب بعصا قوية قبل طعنه . الازرقاق دائري وعصا توفيق السعيد مستديرة عند الرأس . انه الوحيد الذي ما زال يتسلح بالعصا .

«عجلات السيارة تطوي المسافة وتوفيق السعيد يتراكض مترنحا خلف اللاندروفر . كانت يداه مقيدتان الى السيارة بحبل يمتد بضعة أمتار . كلما أسرع السائق ارتطم رأسه بمؤخرة اللاند وانهالت عليه عصي الجنود الجالسين داخله . واذا ابطأت السيارة تحول ظهر توفيق السعيد الى كيس من الرمل تنهال عليه عصا جندي آخر ظل يركض خلفه » .

هل تعرفون هذا الجندي .. الاخر ؟!

انه .. حبرون .

ـ ل ـ

واين ياسين المجنون ؟

الا تلاحظون انه اختفى منذ وقوع الجريمة ؟!

ـ م ـ

لماذا لا يكون طارق ابو ورده هو الفاعل ؟

الجروح قصيرة وعميقة ، وليس غير موسى الحلاقة من يقدر على ذلك . امامكم ، كان ابو وردة دائم الحديث عن امنياته، في ان يستخدم الموس بغير قص الشعر وتنظيف الذقون الوسخة!

ـ أبجد ـ

......

لقد مات برصاص مسدس كاتم للصوت ، والشبهات تدور حول الضابط كاتسمان . فالظرف الفارغ الذي وجدوه الى جوار

الجثة ، هو من نفس نوع الرصاص الذي يستخدمه كاتسمان وحده !

- هوز -

حبرون ليس اكثر من فزاعة ، ليشعر كل واحد منا انه المسؤول عن جريمة لم يرتكبها ، فيما نعيش جميعا بدور الضحية.

- حطي -

ايها المغفلون الطيبون !
من منكم شاهد القتيل حبرون ؟
فكيف تؤكدون انه مات بطعنات خنجر او سكين ؟!

- قلم -

انا خديجة ، زوجة الحداد جبران ، قتلت ، عن سابق اصرار وترصد ، الجندي المناوب في الحراسة الليلية ، المدعو حبرون .

الورقة الثالثة

مفارق الطرق

- ١٣ -

١ ــ كاتسمان

« هل يمكن اختصار المسافة بين نهاية الانف واعلى الشفة؟»
حدق في المرآة ، ودق بقبضة حوض المغسلة .
« عندما تكبر بامكان الشنب ان يحل المشكلة ».
قال ابوه ، وظل واقفا في باب المطبخ .
« لماذا ينبت الشعر هنا ؟» .
« تلك مسألة فسيولوجية ».. .
« بابا . انك ترعبني ، أطبق فمك » !

كانت اسنانه تبرق وتغطي الغرفة كقطع مستطيلة من الرخام الموشى بالاسود . تكبر الاسنان وتغطي باب غرفة المطبخ فيصرخ كاتسمان بفزع ، والاب يرتعش في حيرة وقلق .

منذ طفولته كانت الاصوات لا طعم لها ، أفواه تتحرك كورق الكرتون بلا حرارة او رنين . هكذا تتحرك ، تفتح وتغلق ، والصمت يلف المكان . لم يكن يسمع ما يقوله الناس احيانا ، مع

ان اجهزته السمعية ممتازة ، كما قال طبيب الاذن . وهكذا تحول الناس الى دمى وانتشروا في المدن والشوارع .

كان يكره الرسم ويعشقه في آن واحد ، يمضي الساعات وهو يرسم نساء بلا اكتاف ، ويكتب تحتها « القطار رقم ١٩ » ، و « غدا في العاشرة». وعندما يأتي درس الرسم في المدرسة، تنتابه موجة غامرة من الاشمئزاز والخوف والغثيان . كان ينظر الى وجه المدرس بفزع معلن . كان يرى تفاصيل وجهه بالتقسيط، قطعة قطعة . اذنه اليسرى تغطي مجال بصره ثم تختفي ، فيلمح عينه اليسرى ، وقبل ان تغيب تبدأ ملامح حنكه الايمن في الظهور . وتلك الاستطالة في سالفه تمتد كذنب سنجاب الغابة ، كثة واسطوانية ، فيدق المقعد حيث يجلس ، وتشخص عيون الطلاب وهو يتوجه نحو المدرس . كان رذاذ ريقه يتساقط على وجهه ، فأحس بقطع من البرد كالحجارة تنهال عليه . صرخ بصوت أرعب المدرس ، وعندما مد يده للامساك به ، احس ان آلة حديدية ترغب في هرسه ، فسقط علىالارض مجهدا من الاعياء ، وظل يرتجف والعرق يتصبب من جبينه .

في طفولته فقدت الاشياء وظيفتها ومعناها ، واصبحت مجرد أشياء تفزعه . فيصرخ : فهل يفرغون العالم من اجلي ؟!

اصبح الناس مجرد مكعبات هندسية فقدت معناها ، قطع دمى تتحرك بلا هدف ، اصوات معدنية دون ايقاع ، حركاتهم غريبة لا معنى لها ، فيهرب من هذا العالم المبهم الى ذاته وغرفته، يضحك ويقفز ، وهو عار تماما . يلتفت الى الاعلى فيصدمه نور الكهرباء الذي يتحول الى شبح ضوئي يخنقه ، ويغطي سقف وجدران الغرفة الرطبة . يتجمد على السرير ، فتبرز قضبان حديد النافذة وكأنها اعمدة حديدية بين الارض والسماء ، فيفقد الاحساس بالذات وبما حوله ، هل يواصل القفز ثم يصرخ ؟ هل يندفع الى الارض ام الى النافذة ، كل شيء كان يصده فيقع مغشيا عليه .

كان شديد الانطواء ، يمضي الساعات وهو يتطلع من نافذة

غرفته الى الشارع المجاور والغابة البعيدة . يتطلع الى الاسفلت ويغمغم : ما الذي فعله لي ذاك الرجل الذاهب الى المصنع ؟ انا لا اعرف حتى اسمه ، ولا كيف يعيش ، ومع ذلك امقته واراه ، تافها ، حقيرا ، عندمايقطع الشارع ؟! انه ميت ، يتحرك وكأنه في سيرك . وتلك الغابة ذات الرياح الميتة ، لماذا لا تأخذ امثاله الى الجحيم ؟ ولماذا تتآمر الريح على نافذتي ؟ انه الشارع . تلك الفجوة التي لا نهاية لها، تمتد ليمضي الناس فوقها بآلية ميكانيكية كالسيارات .

يرتد من النافذة الى الغرفةفتبدو كمربع من الكرتون ، كل موجوداتها رتبت وكأنها منظمة في نسق الى الابد .

لم يتجرأ على تحريك الراديو من مكانه وظل شاخصا اليه ، فوق طرابيزة القش . كانت نقطة من كوب الشاي قد سقطت على زجاج الطرابيزة . ركع على الارض ،وظل يتطلع الى النقطة . وهي تتحول الى جداول وانهار ومحيطات . وكلما حاول الابتعاد عن النقطة الى مؤشر الراديو وابريق الشاي ، انجذب بآلية ما نحوها مرة اخرى . تلمظ وحرك فمه ، فتدحرجت كرة الماء الى النافذة، وقفزت الى الشارع ، حيث يسير الناس كالدمى .

كان يبدو له احيانا ان فمه ليس فارغا . حاولوا اخراجه من العزلة . بدفع صديقة اليه . كانت تأتيه وتعود محملة بالمرارة والخيبة . فمه ليس فارغا ، انه يمتلىء بموجودات الطبيعة ، فيقرقشها ، وتهبط العصافير بعظامها وريشها الى معدته وتتحول الى رقيب عليه . مد يده محاولا استبدال الامتلاء بملعقة من علبة اللبن الصغيرة . وفيما مد بصره وفمه نحوها ، تراءى له ان وجه صديقته ينغمس في اللبن ، ويبدو غير واقعي وكأنه تمثال من الجبس الابيض . فمن يأكل وجه صديقته المغمور بعلب اللبن ؟!

عندما شفي تماما ، كان ابوه قد مات ، وتزوجت امه ، فعاد وحيدا الى الحياة . بهرته الشركات والمؤسسات الكبيرة ، واصبح مولعا برسم احياء من المنازل الخشبية او الآجر . وبعد ان يفرغ من عمله المضني الطويل ، يخرج عودا من الثقاب ويشعل النار .

الاحياء الصغيرة تحترق . وشوئة من القمح ينفح في سقفها دخان الحريق . وهو يبتسم بشرود وحزن .

نما مع الحرائق ببطء شديد. تتبدل خارطة العالم من حوله، وهو يزحف نحو خارطته بعناد . وعندما تعرف على الاسلحة ذات ليلة ، لم يجد امامه ورقا محترقا او امرأة مشروخة الرأس ، بل وجد طفلا يسبح في دمه على رصيف قرية « السموع » . كانت تجربته الاولى مع القتل ، ويومها لم ينم . كان شديد الاحساس بالاختناق والخيبة . دائرة الدم تلاحقه ، فيواجهها بمزيد من التوغل فيها . ومرة اخرى عاد اليه احساسه بامتلاء فمه . لم يذهب الريش الى المعدة حتى يشكل رقيبا داخليا عليه ، كان يمضي الى الاسفلت ويبقى كريح الغابة مرعبا ومعطرا .

كان غامضا ، ولكثرة صمته كاد لسانه ان يتوقف . ففي بيت ارناؤوط ، صاحب المقهى ، لم يتحدث بغير ثلاث جمل . وفي منزل عاشور عبد الهادي ، رئيس المجلس المحلي لقرية عباد شمس، لخصت عيناه تلك الكراهية لكل ما يقيم في قرية عباد شمس !.

قولان ظلا في ذاكرة القرية واحاديثها . الاول للعجوز حمدان بدران « هذا النوع من الناس اما ان يقتلك او أن تقتله » ، والثاني الحلاق طارق ابو وردة « اذا كان مبسوطا فوجهه يقطع الرزق، فكيف اذا كان زعلانا ؟ ».

انه يستذكر الان لعبة الرسم والحرائق ، فتختل معايير الاشياء ، وتفقد الموجودات مواصفاتها ، وترتج الحيطان والقرى الخشبية على الورق.

لنلعب الان اللعبة التالية : انا وانت والشجرة . اوه ، انا ، ماذا تعني ؟ اقصد كاتسمان وعباد شمس والشجرة . عباد شمس تصعد الى الشجرة وتسكن هناك ، وكاتسمان يشتري الارض تحت الشجرة ويستوطنها ، والشجرة ليست لعباد شمس او كاتسمان .

لا .. لا ، لن اقول قطع الثعلب الشجرة بالمنشار وسقط

الاساد مهشما . تلك لعبة الاطفال وليس لنا . ولنبدأ بـــالاسئلة التي تخصك .

« اذا نضج ثمر الشجرة كيف اسوقه ؟ » .

هاه ، عظيم ، ها نحن نصل . اذا سقط الثمر اصبح ملكي وفي حوزتي ، مع انه لك وليس في حوزتك ، اذا حافظت عليـه جف وتعفن ومت جوعا . انت الان فوق الشجرة ، اذا سقطـت جوعا او زهقا ، او لاي سبب ترغب ان تحتفظ به لنفسك ، فانك تعلن الحرب ضدي ، وتفقد امكانية العودة الى المنزل المعلق بين الريح والتراب .

والحل ؟

الحل يا سيدي ، ان ترفع البيرق الابيض وان تنتظر سكنك الجديد في قرية « عباد شمس ب » .

صفق بفرح واطلق رصاصتيـن في الهواء . رســـم دورا وشوارع معبدة وكتب تحتها « قرية جديدة للايجار » . انه الضلع الطولي جنوبا ، قاع مستطيل القرية ، ذات الاراضي المصـــادرة بحجة املاك الغائبين منذ عام ١٩٤٨ .

« .. هنا ستقوم قرية جديدة ، تملكها شركة كيرن كيميت، ويسكنها سكان عباد شمس حين تذوى قريتهم القديمة كالشمعة» .

طوى المشروع ، ونهض فرحا ، قفز وأطلق رصاصتين في الهـــواء .

●

دائرة وساق ، وتبدو من بعيد وكأنها فزاعة عصافير .
دائرة وساق ، وتبدو من داخلها وكأنها قرية مهجورة .
هكذا كانت « عباد شمس » ليلاً ، وكاتسمان يرسم عــلى الورق ، تحت ضوء المصباح ، هيكلا لبيدر محترق .

لنلعب اللعبة التالية :

كاتسمان والبيدر والعجوز امين ماضي .

تعال هنا ايها العجوز ، واستقر على طرف البيدر ، فــوق الخط الاسود ، هنا ، هذا الجملون من القمـــح ، هو البيـــدر

المقصود . وهنا ، اوه ، اللعنة على الرسم ، مرة اخرى هنـــاك مسافة طويلة بين اسفل الانف واعلى الشفة . لا ضير ، تحمـل ايها الضابط كاتسمان .

اشعل عودا من الثقاب ، وهو ينقل بصره بين الاشياء الثلاثة التي رسمها ، ومده الى طرف الورقة فأخذت النار تمتد مـــن الزاوية الى المنتصف بخط مائل ، وهو يقهقه بكبرياء . انتبه فجاة الى الضابط كاتسمان الذي رسمه، عندما كانت النار تصـل الى صدره ، فحاول انقاذ الورقة بكعب حذائه . تناولها ، وكـانت ملامح الضابط قد اختفت بالطين الملتصق في نعل الحذاء .

منذ اسبوع والقرية تجز شعر الارض النحاسي وتكومه على البيادر ، حيث يدور حمار الدراسة جارا خلفه اللوح الخشبـي وسوط موسى بدران . وفي الليل تظل عيون العجوز امين ماضي ساهرة يقظة تحرس عرق الفلاحين وخبز شتائمهم . يمد بطانيـة على الارض ويلتحف اخرى ويدخن بحذر ، واضعا السيجارة اللف بين دائرة الاصابع . يحملق في الظلمة ويصغي وكأنـــه يختصر جسده الى اذنين . وكلما احس دبيب أقدام نهض من تحت البطانية وانبطح على الارض وفي يده عكازته . كان جسده المنهك المتهدم ينام في عيونه ، فيثقل رأسه وترتخي اصابعه ويرتفع شخيره . شد البطانية الى صدره واستسلم لاغفاءة قسرية . ولم يفق الا على وهج النار وهي تقترب منه ، وعلى دبيب اقدام هاربة. حملق في الظلمة بذعر ، وقفز وحنكه يرتعش ، واستجمع قواه وصرخ:

ـ يا اهل القرية حرقوا البيدر !!

ركض نحو البيوت الغارقة في الحلم ، ودق احواش المنازل بصرخات الاستغاثة . اخذ الفلاحون يتناقلون النداء ويهرولـون بفزع نحو اللهب المرتفع في مؤونة شتائهم وخوابيهم . ترتد الارجل القادمة الى منازلها لتحمل اوعية الماء وتسارع الى البيدر. وحفنة من الرجال اخذوا يعفرون التراب ويـــدلقون القساطل المائيـة ويقذفون اللهب بالحجارة .

ـ هذه نذالة وخسة .

ـ كله من الافعى كاتسمان ، سيقرصنا واحدا واحدا .

ـ انه انـــذار .
ـ الحق على العجوز امين ماضي .. لماذا ينام ؟
ـ من يحرق نعمة الله سيحرقه الله يوم القيامة!؟

تساقط جسد امين‌ماضي من الشجرة الى الارض ، وصرخ الراعي الالثغ :
ـ حفقوا ظهوغنا اولاد الحفام ، احفث وادغس لبطفس .

حين مزق كاتسمان بقايا الورقة المنقطة بطيــن نعل الحذاء. كانت قناديل الفلاحين يقظة وظلت ساهرة حتى الصباح .

●

في تل ابيب ، حيث البحر يلامس الافق ، وحيث ينحــدر الافق الى المياه الاقليمية الفلسطينية ، كان كاتسمان يدافع عــن مشروع قرية عباد شمس رقم ب :
ـ منطق مقلوب ايها السادة ان تطالبونني بزراعة الاشجار، وتنسيق الممرات ، ثم تقديم طلب الترخيص لانشاء حديقة عامة. ليس بمثل هذه المواصفات اقيمت الحدائق ، فربما تبنــى فوق مقبرة مندثرة ، او منازل متآكلة ، او قرية مهجورة ، او ارض بور خلفها لنا الاتراك بعد اربعمائة سنة من الاهمال .

ـ اعرف ، نحن لا نتحدث عن الحديقة . ليس دائما مفارق الطرق هي المكان الانسب لبناء محطات الاستراحة . وما يهمــني ان تختفي ملامح البيوت الطينية الواطئة ، وخير وسيلة لطــرد البعوض تجفيف المستنقعات .

ـ في اليد نموذجان لقرية المستقبل ، خليل السيلاوي ، انكم تعرفونه ، ذلك المدرس الطامح في المكانة ، وارناؤوط الباحث عن اكياس الذهب . وحبة واحدة تكفــي لفرط المسبحــة كلها . فدعوني . ايها السادة . ابني لكم ، بما يشبه المجان ، قرية مجانية، يدفع ايجارها سكانها ، ويصبحــون في عداد السـواح وغير المقيمين .

●

في طريق العودة من تل ابيب الى المستعمرة . كان كاتسمان يهز رأسه بين حين وآخر ، يدق بقبضته على السكان فيهتز اللاندروفر ، وتتحول الاشجار ، والنباتات ، والمنازل ، الى اشياء مرعبة تفقد معناها . كان يحس ان فمه ليس فارغا . انه يمتلىء بالموجودات التي تتحول الى عيون تراقبه عندما تهبط الى المعدة. حرك بطنه وظل متجمدا بين المقعد والسكان ، ووجها كتمثال الجبس الابيض يذوب في علبة اللبن.

نقطة من علبة العصير سقطت على السكان ، فخالها نقطة القهوة التي استوقفته طويلا . يهرب من النقطة الى النافذة ، فتتحول الاشجار الى اعمدة شامخة ، والناس على الرصيف الى الات اصطناعية ، تمضي دون هدف .

(ب) خليل السيلاوي

خليل السيلاوي . خ، س .

خاء : خم ، خزامى ، خاتم ، خردل ، خردق ، خراط ، خرطوم ، خربوش ، خزعة ، خرتيت ، خرابة، خديوي، خرافة، خديعة ، خازوق .

سين : سرداب ، سلوى ، سروال ، سراج ، سائدة ، سفور ، سفاهة ، سفرجل، سكر ، سميرة ، ساقية ، سماجة، سمسار ، سادات ، سخام ، سلم ، سلوان ، سبط ، سبأ ، سنمار ، سنجاب ، سؤال ، سد ، ساحل ، سحاب ، سجن .

طوى الورقة في المنتصف ، ثم عاد فطواها مرة اخرى ، ومزقها وهو يحرص على اخفاء كل كلمة فيها . « خازوق-سجن» ابتسم ساخرا ، وهو يربط بين الكلمتين الاخيرتين في تداعي اسمه واسم العائلة . لقد اخترع لنفسه هذه اللعبة المشتقة من علم النفس التحليلي ، والمعروفة باسم التداعي الطليق ، والكنه

قيد الكلمات بتشابه الحرف الاول فألغى دلالة الاولى . واعتبرها اختراعا جديدا لمعرفة الحظ .

اللطمة لم تأته من خارج المنزل ، اذ رغبت امه بمعرفة حظها. فاطمة حسن الاشرم . انتهى حرف الفاء بكلمة «فلانة» ، وانتهى حرف الحاء بكلمة «حبلى» ، وانتهى حرف الشين بكلمة «شر...». فلانة ـ حبلى ـ شر... ايها الولد السافل ماذا يعني هذا البخت؟؟ ومن يومها لم يعد الى لعبة التداعي .

« فاطمة حسن الاشرم ، مثل كل الفلاحات تنتظر اليوم الذي احتل فيه مركزا مرموقا او وظيفة مهمة . ربما تفتح فمها وتزغرد ، توزع الحلوى ، ترش الملح على وجهي ، تكسر الجرة على باب المنزل ، وتنذر لله ان تذبح كبشا على العتبة . وهي ككل الفلاحات تدعو لي ببنت الحلال ، حتى اتزوج واستر نفسي ، واكمل حياة الاسرة بالاولاد . ومن المتوقع ، فيما اذا تزوجت ، ان اشاهدها تبكي فرحا او حزنا ، وان تباشر حربها مع زوجتي منذ ليلة الدخلة ، تلك الغريبة التي اخذت منها ابنها . نحن نشقى ونربي ونسهر ، وتأتي الغريبة ، على البارد ، وتأخذ زهرة عمري وتستمتع بها . ومن المتوقع ، ان تبدأ اللغط مع الجيران ، ثم مع سكان الحارة فالقرية كلها ، بان ابنها الذي صرفت عمرها في تربيته ، لم يعد يزورها ، لان الغريبة منعته من زيارة اهله . هذه الام الطيبة ، التي ستدافع عن كل خطوة اخطوها ، حتى ولو كانت الى جهنم ، ماذا ستفعل اذا عدت اليها محطما ، يائسا ، معلنا ان كل الابواب اوصدت في وجهي ؟!

ابي دائم التفاخر بي الى حد الخجل . « ابني خليل مثل البنت البكر يحلف بشرفه ، اي والله ، فما خرج من عائلتنا فاسق او خائن منذ ايام نابليون . ». خائن ؟ كيف خطر له هذا الهاجس وانا ما زلت في مرحلة الدراسة في جامعة حيفا ؟؟

ابي المفتون بأبيه ، والذي سماني على اسمه ، يحاذر دائما ان يذكر امامي وقائع تشرد والده . فمن معاون في محطة القطار، الى سائق شاحنة ، الى مزارع ، فبائع متجول ، فعتال ، فشيخ

فعتال . لكنه كان دائم الحديث عن كفاحية وعصامية هذا الجد ، الذي كان يخرج لقمته من الصخر وينتزع القرش من فم العصفور. واريدك يا خليل ، ان تكرر سيرة جدك ، فتنتزع المركز المرموق الذي يعيننا في الشيخوخة .

وبدأت اولى خطواتي فيانتزاع القرش من فم العصفور . كنت مولعا بالاذاعة الى حد الهوس، اقضي الساعات في حوش بيتنا وانا أقرأ على مسامع امي وابي نشرة الاخبار وهما يعقبان: أي والله العظيم ، صوتك يضع كل اورطة الاذاعة في جيبتك الصغيرة ! وقبل اسبوع من التقدم الى الاختبار الصوتي ، حرصت امي على توفير السكر الفضي ، والشاي بالميرمية ، وحرمتني من افطار الزعتر حتى لا «يشحط زوري ».

عدت محملا بالخيبة . امي في زاوية الغرفة تضع وجهها بين يديها وتلطم بين حين وآخر ، وابي يقلب الامر من جوانب عدة . ما دمت تصلح للغناء في اعراس القرية فكيف لا تصلح للميكروفون ؟ ربما يحتاجون الى واسطة ، فلماذا لم تذهب الى عمك عاشور عبد الهادي وتأخذ ورقة تزكية ؟؟ ومع ذلك ، بسيطة يا والدي ، ستقول ، أقصد سأقول ، ان الاذاعة تضغط على والدي من اجل ان يقبل بوظيفة مذيع ، لكنالولد يرفض ، فتدخلوا أيها العقلاء لاقناع هذا الولد بالوظيفة ؟ وامك ستكمل الباقي ، فهي، كما تعرفها ، دائمة الحديث عنك . ابني ـ والحمد اله ـ لا يدخن ولا يشرب ولا يعرف السينما او السهر في الخارج ، ومنذ صغره وهو يصلي معنا صلاة الجماعة .

التلفزيون ! آه . . كيف نسيت ؟ فعلا، التلفزيون. ماذا ينقص ابني حتى لا يكون مذيعا في التلفزيون؟ خليل نجح في مسابقة الاذاعة ، ولانه اكمل حسن صوته بحسن مظهره، قرروا نقله الى التلفزيون ، وما اخشاه ان يرفض هذا الولد المنصب الجديد ، وان يصر على الاذاعة فيمنحهم الفرصة لطرده !

كان ابي يتحدث بجدية كاملة، وكأنه يتذكر وقائع عمل حقيقي ، مما منعني من الضحك او المناقشة . وبكل طيبة ، فاجأني بسؤاله :

ـ ما دامت الدنيا اغلقت أبوابها في وجهك . فلماذا لا تكتب الشعر ؟!

الشعر !! مرة واحدة ! ضحكت ، واستدرت نحو الباب وخرجت . ومن يومها لم نتحدث عن الاذاعة، التلفزيون، الصحافة، والشعر .

●

مطر شباط يغسل القرية بتواصل ، والفلاحون يظهرون فرحهم بامتلاء الابار وارتواء الزرع دون سأم . في السهرات الليلية البطيئة ، تمر فصول السنة دوغلةالارض ، وسعر القمح والملابس والزيت ، وكل حكايا الزواج والطلاق . وفي كل هذه الاحاديث تدخل مسألة الارض ، والمستقبل، كيف ؟ فيدور الساهرون على الوضع العربي الراهن ، ويستذكرون العمليات الكبيرة، واسماء الجبهات، والفرق بين راكح وحزب العمل .

خليل السيلاوي، رغم انه لم يضع كيسا واحدا من الاسمنت، او نصف متر من الخشب ، فقد ظل يحتفظ بيافطة شركة التوريدات . يجلس خلف مكتبه ، وبشيء من التكرار القهري ، ليعيد تنظيم الاوراق خمس مرات في اليوم . وعندما يأخذه النعاس يفرد يديه ويلقي رأسه على الطاولة . سجن انفرادي معزول ، هكذا كان يسمي السيلاوي شركته ، ويمشي بين الوحدة والذكريات فتصده الجدران الشاخصة اليه كفم متكلس، وتجرحه الاسئلة الخبيثة من الفلاحين وهم يستفسرون عن موعد وصول الحديد ، فهو يعرف ان جميع طلبات رخص البناء قد رفضت ، ومع ذلك لا يمل من تسجيل الكميات التي يطلبها الفلاحون لترقيع منازلهم القديمة .

شهر كامل والسيلاوي نزيل الكرسي اليتيم المثبت خلف الطاولة . ومع مطلع كل صباح كان يتخيل وصول الشاحنات ، وتوقفها امام الشركة محملة بكل انواع مواد البناء . وبين خياله والشاحنات مسافة واسعة يملكها كاتسمان ، ويروضها وفق مصلحة المستعمرة .

في مطلع كل صباح ، في المدرسة ، كانت اصوات الطلبة. وتقارير المدرسين ، والمراجعات ، والتدقيقات ، تأخذ وقته، وتمنعه من ان يشعر ان الجدران ورائحة ارناؤوط هي الوحش المثقل بالغربة والفراغ والخيبة . المنافقون يقضون معظم الوقت في الحديث مع المدير ، فذاك المدرس لا يؤدي واجبه ، والاخر، آه لو تعلم ، انه يمضي الوقت في قراءة المجلات ، والثالث ، لا تظنه احسن منهم ، اعتقد انه من جماعة الصوف الاحمر . انت ترهق صحتك يا خليل السيلاوي ، اتق الله يا رجل في حق نفسك ، فالحياة لا تستحق كل هذه التضحية ، اذهب واسترح وكل شيء سيسير على ما يرام . اذا أردت كتبت لك تقريرا خطيا، وسأتحمل مسؤوليتي !

يغمض عينيه ، فيطرد اسراب الذباب ، وينتظر جوابا. هاه ؟ ماذا قالت ؟ . . امتأكدة انت يا ثريا انها قالت ذلك ؟ لا. . لا اقول انك اخرجت الكلام من عبك، فما يخرج من هنا . . آه، انتظري . نفر نهدها الايمن وهي ترفع يدها ، بعد ان اشارت اليه. مخروطان قمحيان يهتزان بكبرياء . ولم تعد عيون نهى عابدي مقلتا للاحجار الكريمة . لست كذكر العنكبوب ، ادمج رغبتي الجنسية في الرغبة بالانتحار . ها هو يمضي الى حتفه ، اشاهده وهو يفرغ طاقته الجنسية ثم يتوقف قلبه عن النبض وهو في غيبوبة الاسترخاء . وعندما تنهض انثاه، تلك التي اشبعها الحظات، لا تجد ما تأكله سوى جسد عشيقها ، وقد مات . ولكنها لا تفلت من قدرها ، فاذا لم يجد اولادها ما يأكلونه ، يفرز جسدها مادة مشجعة على الالتهام . الاولاد يهجمون على امهم ، يأكلونها بالتقسيط وتحتفظ بقلبها ورئتيها حتى اللحظة الاخيرة . انهما يشهدان الجريمة الاولى ، وينتحران حين لا يجدان جسدا يلجآن اليه .

لست كذكر العنكبوت . ثريا ، ما الذي يذيب الشمعة ؟ الزمن ام النار ؟ ايهما قتل الاخر، الذكر ام الانثى ؟ انت ام هي ؟ كيف استطعت ادخار كل هذه اللذة ؟ ولكن نهى ، تلك القامة المطرودة من الجنة . لماذا ترفض خليل السيلاوي ؟

غبار العمل ولا جوع البطالة . انت تقولين ذلك ؟ كل شيء تغير . حتى الشارع فقد حركته وانواره وعشاقه. كان بيتها على الكوع الايسر للساحة . فوق مقهى الفراشة . تتسلق الدرج الى الدور الاول ، وكانك تتسلق مئذنة مسجد ، تقرع الباب . فتهرع أستير الى شفتي وتسوقني من الباب الى السرير . تفضل ! يا سيدتي ، ما زلت طالبا في السنة الاولى ، وبعد اربع سنوات سأعود الى قريتي ، فماذا احمل في فمي ؟! لست انا ، المسؤولة عن الحرب ، سأخرج الى الحراسةوعد غدا . آه ، اسمع ، لماذا لا تسكن عندي ريثما تنتهي الحرب ؟ اسكن ؟ عندك ؟ ولم لا ؟ تعال. كانت حرب تشرين في يومها الثاني . كنت كالمأخوذ ، بين الغرف والمطبخ والسرير . تخرج حاملة العوزي ، وتعود بعد انتهاء الحراسة لتجدني على السرير فريسة سهلة الافتراس حتى الادماء . اين اهرب ؟ الشارع لم يعد شارعا ، والجامعة اقفلت أبوابها ، وفي القرية ماذا يفعلون غير الاستماع الى الراديو وانتظار العرب ؟! لا اريد ان انتظر احدا ، سأجعل واحدا على الاقل ينتظرني . لم اكن مرميا على طاولتي ، كما انا الان ، كقطعة من الخيش وأستير لم تكن كاتسمان .

ـ يا كاتسمان هذا لا يجوز انت تحرجني امام سكان القرية. خسرت وظيفتي في المدرسة ليس من اجل اليافطة ورائحة ارنائوط . ارجوك تدبر الامر ، والا انتهيت .

ـ المعذرة يا خليل ، لم يوافقوا على الشركة . انهم يقترحون استبدالها بتعاونية ، ويمكن تسميتها تعاونية السلام ، مثلا .

ـ لست بقالا يا كاتسمان .

ـ يا خليل السيلاوي .

ـ ....

ـ اعقل يا رجل ، وستكسب ذهبا!

امامه ، يتمدد الشهر الاخر ، بلحمه ودمه، وكأنه الدهر .. ثلاثون يوما ، يزحفون كالسلاحف فيفطون حقل الفرح ، ويقبضون رئتيه . استسلم للاحساس بالاختناق والصداع النصفي الحاد ، حتى مرت جميع السلاحف فوق انفه . وعبورة ، حارس المقبرة،

الذي أقنعه كاتسمان بترك الحراسة والتحول الى التعاونية، طوال هذا الزحف ، كان يواصل الجلوس فوق أكياس الارز ويثرثر عن الماضي ، ويحلم بالاكياس المخزونة في قفا الشيطان .

●

— يريدون تدميري والواسطة خليل السيلاوي.

لم يكن سهلا منع سكان القرية من التعامل مع التعاونية ، خاصة وانهم بحاجة الى الكثير من المواد المفقودة من دكان جميل وادي ، بل وباسعار ارخص . ومع ذلك فقد تضامنت القرية مع جميل وادي الذي حلف بالطلاق من زوجته ، وبانه لا يكون رجلا اذا تعامل مع سيارات المستعمرة . ومن اجل حل مشكلة المواصلات بين الاسفلت والدكان ، ذهب الراعي محمود الجمل واشترى بغلين وحمارا من القرية المجاورة على حساب جميل وادي، خاصة وان الجيش عندما داهم القرية اخذ معه كل ما بها من اغنام وماعز . واقترح ابن جميلة، السائق اليتيم ، ان تعمل سيارته بدءا من الاسفلت الى حيفا . وفي حالات الكساد فانه على استعداد للتحول الى سائق بغل ، ومساعدة الراعي في نقل الحاجيات .

قطعة الارض الملاصقة للاسفلت تبرع بها موسى بدران. وعلى قطعة الارض ، بنى الفلاحون عريشة لايواء الحمير والبغال، وبنى ابن جميلة عريشة اطول لسيارته. وبجوار العريشتين بنى العجوز امين ماضي خصا صغيرا للحراسة بعد ان فقد عمله في ارض عاشور المصادرة .

قطعة صغيرة تنمو بمحاذاة الاسفلت وتنقذالقرية من الاعتماد على سيارات المستعمرة . ولم يعد جميل وادي بحاجة الى كفارة او الحنث بيمينه ، كانت القرية كلها تشهد افتتاح هذاالطريق عندما جاءت الدفعة التموينية الاولى. ابن جميلة يشمخ على الاسفلت ويدفعه المطر الى الاحتماء بالعريشة ، والرجال ينزلون الاكياس والكراتين من السيارة . وصاح العجوز أمين ماضي بفرح « واخيرا . . وجدت ما تحرسه يا امين »! فعقب احمد منسي ساخرا « لن تدوم هذه الحراسة ، سننقل الحاجيات الان » .

كان احمد منسي وتوفيق السعيد يغلقان الاكياس بالنايلون. ويبدأن على البغل الاول رحلة النقل على الطريق الترابي . خلفهما سار ابن جميلة وجميل وادي وراء البغل الاخر ، وهما يتحدثان بانفعال وعصبية . وعلى الحمار الوحيد كانت الدفعة الاخيرة من المواد ، وخلفها يغني الراعي محمود الجمل وهو يلثغ.

●

ــ نحن نثمن جهودك يا خليل السيلاوي ، ونريد مكافأتك على نشاطك الممتاز.

قال كاتسمان ، فغمغم السيلاوي «شكرا ، شكرا ، يا سيدي » ، وخال النقود تنهال على يديه فلا تتسع ، يملأ جيوبه، فلا تتسع ، فيقترح فكرة الرصيد في البنك. طالما تمنى ان يصبح من ذوي الارصدة البنكية ، ولو ليوم واحد .وكاد يقول ، لا لا تعطني اياها ، لنضعها في البنك ، ولكنه حبس فرحته ولسانه وظل مطرقا رأسه .

ــ ولذا قررت نقل التعاونية الى قرية عباد شمس (ب).

سقط القلم من يد السيلاوي وهو يحملق بعيني كاتسمان.

ــ ولكن يا سيدي قيمة التعاونية انها داخل القرية .

ــ نعم، ونحن لا نذهب بعيدا .

ــ لكن . .

ــ سيأتون الى قرية عباد شمس ب وسيشترون منك .

ــ انت يا سيدي تحكم على المشروع بالفشل .

ــ ابدا . .

ــ والمنزل والمقهى. . ومنزل عبورة ؟

ــ سننسفها !

لم يصدق السيلاوي ، وكاد لسانه يسقط ، ولكن كاتسمان لم يمهله فأردف :

ــ قلت لك سأحول القرية الى خرائب وعقارب . . ومن شاء ذلك يحتفظ بدمه !

خرج كاتسمان مسرعا ، وسقط جسد السيلاوي على كيس

الارز . الاذاعة . التلفزيون. السوبر ماركت ، الارصدة. كالمسامير كانت تنفرز في جسده . وهو يتأوه ويضغط على صدغيه .

ـ ما الذي حصل يا استاذ ؟

قال عبورة مندهشا . وهو لا يصدق ان رئيسه اصبح ينافسه الجلوس على كيس الارز . لكنه لمحه يتأوه ويتألم ، لعله المغص ، لعله نوبة كلى . فتح فمه مجددا : ما .. وقبل ان يكمل قال السيلاوي :

ـ سينقلون التعاونية الى الارض الجنوبية.

ـ هذه التي يسميها كاتسمان عباد شمس ب ؟

هز رأسه موافقا ، فلطم عبورة :

ـ والله آخر زمن ، يقسمون القرية الواحدة الى ثلاثة اجزاء، الاولى عباد شمس (ا) وهي مرشحة للتدمير والموت ، والثانية عباد شمس (ب) وهي مرشحة البطالة والفراغ ، والثالثة المستعمرة وهي مرشحة لجلب المهاجرين . ماذا قلت له يا خليل ؟

ـ ...

ـ وبيوتنا ؟

ـ سينسفونها .

ـ هكذا! اوقعت بي يا سيلاوي!

ـ انــــا ؟!

ـ الموت بجوار القبور ارحم من الحياة هناك .

ـ لن نستطيع مقاومتهم .. عليك ان تستسلم .. لقد انتهينا ..

●

انتصبت اليافطة بالعربية والعربية ، وامامها يمتد الفراغ والريح والمطر . لم يرغب احد في زيارة التعاونية ، حتى الذين يساندون خطة كاتسمان وسقوط عبورة . «امرأة في بيت استير ولا رجلا في قرية كاتسمان ! كانت تحارب في الحراسة وتوفر جنديا لخط النار ، وساعدتها بنومي في منزلها على توفير رجل ثالث ربما استأجرته المتعة . تلك المرأة الشبقة حين تستلقي

على ظهرها وتدعوني بلهجة عريف خفر لم توهمني يوما بما هو خارج اتفاقنا . اسكن مجانا ، آكل مجانا ، وفي الليل تتصرف بي بالمجان . اذا رغب احدنا في فسخ هذا العقد الشفاهي ، ما عليه سوى ان يبلغ الطرف الاخر قبل اسبوعين من الموعد المحدد. كانت تعتلي صدري ، ويرتجف صدرها ، وانا استفسر بسذاجة عن حبوب منع الحمل او أي مانع آخر . قرصتني في خاصرتي واستلقت بجواري وهي تدخن . يا حبيبي ما حاجتي الى الحبوب؟ سأحمل طفلا ، وسيصبح يهوديا على الفور ، والصانع فلسطيني! الا تروقك هذه الفكرة ، انت تخسر طفلا ، وانا وشعبي نربح طفلا ، ممتازا ، لانه سيأخذ احسن ما فيك وفي ! لحظتها فقط، انتفضت ، اشعلت سيجارة (رغم رأي امي انني لا ادخن) ، وكنت عاريا (رغم انامي تحرص على صلاة الجماعة) وقلت : يا سيدة استير .. من الليلةيبدأ انذاري ، ومن الغد سأستخدم مانعا ».

هناك فسخت العقد وتشردت قليلا او كثيرا ولم امت . لم تكن بيننا ورقة ما ، كنت طالبا حرا طليقا ، لم يخرج لقمته من فم العصفور . وما علي سوى ان اغمض عيني الان وان اوقع عقد ايجار منزلي الجديد ، بثلث راتبي . وعلى عبورة ان يبصم بالابهام ، فكل عمره وهو يحرس الموت ، فلماذا لا يحرس جثته وهي تسير فوق الارض ؟

ــ لا تعتب علي يا عبورة .

.. فأنا مجرد موظف .

ــ ومن ارغمك على ترك التدريس ؟

ــ لا تحطم اعصابي ، ارجوك .

●

رحيل السيلاوي وعبورة اشعلا فتيل الاعصاب الباردة في القرية . وتحت الاغطية السميكة ، حيث يواصل الفلاحون انجاب الاطفال ، كانوا يتحدثون عن الرحيل بغضب وتوتر . وفي النهار، بدأت الوفود تتقاطر على بيت عاشور وعبد الهادي ، رئيس المجلس

المحلي ، وتطالبه بتنحية خليل السيلاوي ، عضو المجلس ، فكيف نقبل بعضو يقيم في المستعمرة المبطنة ؟ أنهم يريدون تحويل قريتنا الى خرائب واطلال حتى نهاجر ! هذا المجلس تحول الى بوق في يد كاتسمان ونحن لا نريده .

« هذا هو مجلسنا المحلي الموقر :

الرئيس ارنب ينمو في جيبة كاتسمان ، ويراكم نقوده في حيفا ، ولعله هو الاخر يفكر في الرحيل .

ارناؤوط اشتروه بثمن بخس وسيصبح قوادا حتى يعيش.

السيلاوي حطب عاش على حواف موائدنا وها هو يرفس النعمة ويتحول الى بقال وموظف في تعاونية كاتسمان .

الرابع ، لعلكم نسيتم اسمه ،بحكم غيابه الطويل عن القرية، وهو المدعو نعيم الجرس ، صاحب مطعم في مدينة تل ابيب .
هذه هي الشلة كلها !»..

« كاتسمان سيبتلعنا اذا لم نقف في وجهه كتلة واحدة ».

كاتسمان ، ظل صامتا كعادته ، واكتفى بتفسير صغير امام عاشور عبد الهادي : انها حملة مدبرة من اجل الانتخابات القادمة ، فصلاحيات المجلس تنتهي في نيسان ، والديراوي يريد ان يكسب الجولة . نستطيع تمديد الحملة الى ايار ، وفي كل أيار نجدد المعركة ..

الانتخابات القادمة ، تذوب في الريح وتدخل بيوت الفلاحين، احاديثهم ، سهراتهم ، ومطر شباط يغسل القرية ، وخليل السيلاوي يدفن رأسه في دموع عبورة وتهدمه، وفي نيسان وايار، حين يجيء الصيف او بوادره ، يشمر الفلاحون عن زنودهم ، وترتخي ذاكرة السيلاوي عن الاتفاق الشفاهي مع استير والاتفاق الخطي مع كاتسمان ، وتعود البيوت الطينية الى زهوها وحزنها المستديم .

(ت) ارناؤوط الارناؤوطي

ـ ١ ـ انور الارنـاؤوطي

كان جنديا في الثامنة عشر حين جاء الى فلسطين مع قوات ابراهيم باشا . وفي غمرة الاحساس ، بانه يشارك في تكوين امبراطورية واسعة ، ستستولي على مركز الخلافة ما بين القاهرة واسطنبول شمالا ، وما بين القاهرة وعدن في الجنوب الشرقي، نسي وصية ابيه حين ودعه في ميناء الاسكندرية . كان المطر يتساقط بتقطع ، حين انحشر في العربة الثانية مع الاولاد والصناديق - في العربة الاولى كان محمود الارناؤوطي يمتلىء فرحا وهو يحدث زوجته المصرية عن وطنه البانيا . تعانقا صدرا بصدر ، ومحمود يهمس في اذن ابنه وصيته الاخيرة :

« .. في اول فرصة اهرب يا ولدي وعد الى بلادك . ليس مهما ان تهرب من ميناء الاسكندرية، ففي اي ميناء آخر ، اذا انتقلت مع الجيش ، لن تعدم وسيلة الهرب . سنعيش حياة هادئة ، وسأجهز لك بيتا وزوجة تنتظر عودتك » .

كان جنديا في قوات ابراهيم باشا حين جاء الى فلسطين. لم يشارك في حصار مدينة عكا ، او فتح يافا ، ولكنه كان مزهوا بالجيش الذي يطوي القرى والمدن تحت ابطه وهو يتوجه شمالا. شاهد مرة شابا يقرب من عمره ، وهو يبكي ويقاوم الجنود

بشراسة لا تتناسب ودموعه . عندما احاطوا به ، لمع خنجره وساد الصمت. وبدلا من ان يتقدم نحو جندي ويطعنه به ، رفع وجهه الى اعلى ، ومد يده اليسرى وشد تجويف العين ، وبالخنجر سمل عينه اليسرى . وقبل ان ينقله الجنود مغشيا عليه ، سمعه يقول جملته الاخيرة : لم اعد صالحا للجندية!

مطر اسكندرية ، وتلك العين التي خرجت امام ناظريه ، افقدته شهية الاكل وحرمته من النوم لثلاث ليال متتالية . وفكر في ان يهرب في نفس الليلة ، لكن الحراسة كانت مشددة ، ولم يقتنع الحارس بانه يريد التغوط فعلا . وقبل ان يرتب الامر ، جاءته الاوامر : الحملة على جبال القدس .

سمع الجنود يتهامسون عن الحملة والمنطقة ، وعرف منهم ، ان الجيش سيحاصر منطقة جبلية شاسعة يتخندق بها عشرة الاف ثائر ، ويقودهم رجل محلي يسمى ابراهيم ابو غزش . وماذا يريدون ؟ سأل ببراءة اخافت الجنود ، وظنوا انه قد يكون احد عيون القائد عليهم . واكتفى جندي جاوز الخمسين بالقول ، أنهم يطالبون بالغاء الجندية الاجبارية .

مطر اسكندرية ، وصية ابيه ، وتلك العين التي سملت دون ارتعاش ، تغل يديه عن الحركة ، فيخرج صامتا ، حزينا ، وهو يرتعد . وبسبب الحمى ، اعفي من المشاركة في الحملة ، وظل اسير هواجسه، وبمرور الزمن، لم يعد يشعر ان ميناءالاسكندرية، وعين ذاك الفلسطيني ، تشكل كابوسا يستعبده . ها هو يتنفس بارتياح ، بعد خمس سنوات من مشهد افساد شروط الالتحاق بالجندية .

الحملة مرة اخرى على جبال القدس ، نابلس ، الجليل .. « لقد حان الوقت لان اهرب ». معا ولاول مرة بدأ يهتم بامتلاك صرة خاصة تقيه غائلة الموت على الطرقات . ولم يعد بحاجة الى عذر التغوط . فموقفه كجندي في وحدة الاستطلاع ، يساعده على الاختفاء .

خرج مع الجيش المتوجه شمالا . لوى عنق حصانه، وهمزه

بكعب حذائه فانطلق يعدو ، والجنود ينتظرون عودته خلف اكمة صغيرة ، على الطريق بين طولكرم وشويكة .

ابتعد كثيرا عن المنطقة ، ويستطيع ان يتخيل آمر وحدة الاستطلاع ، وهو يقدم تقريرا شفويا الى القائد ، ينعي فيه مقتل الجندي انور . كانت عباد شمس حينها لا تزيد عن ثلاثين منزلا ، وتقطنها عائلات الديراوي ، عبد الهادي ، ال وادي ، الجمل ، بدران . عندما لمحه الديراوي قادما ، أحس بحجر يتدحرج على صدره ، فلن يكون هذا الفارس الا راس جيش قادم ، يأكل الاخضر واليابس ، ويبتلع مؤونة المنازل ، ويسرق الفتيان القادرين على القتال . هرول مسرعا من كتف الجبل المطل على وادي الصرار ، ولكن الفارس التقاه قبل ان يصل فوقف مرتعبا وحنكاه ترتجفان . حياه الفارس فرد بوجل وهو ينتظر الموضوع ، « هل تستقبلون الضيف ؟» . لم يجب « الضيف ؟ هؤلاء الضيوف كالضباع لا لا يميزون بين لحم الانسان ولحم الماعز » . « اطمئن انا وحدي ولست جنديا » . تطلع نحوه وكأنه يريد القول « ولكنك تلبس ملابس الجنود ؟»، وانبسطت اساريره وهو يستمع « هذه ملابس جندي مصري قتلته .. وهذا حصانه ». كاد يقفز عن الحصان ويعانق الفلاح ، فما خطر له ، انه سيتمكن من ترتيب حيلة ناجحة مثل هذه الجملة التلقائية البسيطة. وكل ما راوده ان يخفي امره لمدة من الزمن ، ريثما يرتب حيلة محبوكة الوقائع . « اذن انت من جماعة ابو غوش » ، قال الديراوي باعجاب وتبجيل . « رائع! يا الله ! ما هذا الحظ ؟! هكذا تكتمل الحيلة من كل جوانبها ».

هرع الديراوي وهو يسير خلفه ، كبطل من ابطال جبال القدس . تغمره العيون بالاعجاب ، وهو يتلو ما طاب له من قصص الحصار والمطاردة والمداهمة والفرار .

حرقوا ملابسه وقذفوا رمادها على المزبلة ، وغدا حصانه واحدا من احصنة الحراثة ، واصبح انور محمود راعيا وفلاحا . هكذا اقتنع الفلاحون بالاسمين الاولين ، ما دام الضيف مطاردا ومطرودا ، وسيأتي اليوم الذي يفصح فيه ، عن طيبة خاطر ، عن اسم عائلته وعشيرته.

ويوم خروج قوات ابراهيم باشا من فلسطين ، نظم القرويون احتفالا في منزل عبد الهادي ، وكان انور وحده يشعر بالانقباض والفرح معا . لقد خرجوا ، فسقطت امكانية ملاحقته كجندي من وحدة الاستطلاع في قوات ابراهيم باشا . وما عكر صفو فرحه، ان هذه المناسبة ايضا هي الوقت الملائم للافصاح عن هويته ، فماذا يقول ؟ كان الفلاحون وزوجاتهم واولادهم يرمقون ذاك الغريب بشيء من الافتتان وهو يتلو كلمة قصيرة :

« انا انور محمود ، كلكم تعرفون ذلك . قلبي مثلكم يرقص طربا لخروج قوات ابراهيم باشا. وفي مثل هذه الفرحة هل تسمحون لي أن أكشف جزءا صغيرا من محطة الحزن في حياتي؟ انا . . لا أهل لي ! قتلوا كل عائلتي عندما هاجموا الجبال ، فانتقمت لاهلي بقتل الجندي والفرار اليكم في ثيابه . فما قيمة معرفة اسماء هذه العائلة البائسة المنكوبة؟!» .

ومن يومها، لم يعد احد الى الاستفسار عنه ، وعاش كواحد من ابناء عباد شمس التي احبها حقا ، وغدا حريصا عليها مثلما يحرص الانسان على حدقة عينيه (باستثناء ذاك الشاب الفلسطيني الذي سمل عينه اليسرى).

تزوج ابنة الديراوي عندما شارف الاربعين ، فأصبح له دلة قهوة وكانون فحم . الايام تمضي كتبدل الفصول والزوجة لا تلد . الافواه تترحم على الثائر الوحيد في عائلة من القتلى . وكان الطفل بالنسبة اليه ، الستارة التي ستغلق نافذة ميناء الاسكندرية الى الابد . وكان بالنسبة الى زوجته شفيقة، شهادة حسن السلوك على ان بطنها يحمل الخير ، والمسألة ليست محصورة في اللسان . وعندما صدر قانون الطابو عام ١٨٦١ لم يعره الفلاحون اي اهتمام ، وانور يتحسر على الولد .

« قبلَ ان اصاب بالعجز الجنسي علينا ان نفتش عن طريقة ما تنقذ الموقف ، الاعشاب فشلت في ان تقدم حلا . وكل النذور ضاعت مع الريح . ويكاد جلد جبهتي ان ينسلخ من كثرة الصلاة . ونحن على حالنا . لماذا لا تذهبين الى الشيخ وادي؟ نعم ، وتركعين تحت قدميه ، فربما يتراجع عن يمينه وسأدفع الكفارة عنه .

لقد انجبت زوجة عبد الهادي ولم يقدم الكبش والنذور ؟ مـــا ذنبنا نحن ؟ سندفع كبشين وما يشاء هذا الشيخ الجليل اذا نجح في مداواتك » .

ولاسبوعين متواليين وهما يحاولان اقناع الشيـــخ بمداواة عقم الزوجة .

« كبشان .. الاول مقدما وحيا».

قدم انور الكبش الاول راضيا ، فرحا ، وبدأت الزوجـــة جلسات العلاج الانفرادية مع الشيخ . كانت رائحـــة البخـــور العفونة الرطبة تعبق جو الغرفة ، والتراتيل المبهمة والادعيــــة والصراخ تسد عين المراة والشيخ يحادث الجن ! ويرجوه ان يترك جسد المسكينة شفيقة الديراوي . واقتنعت شفيقة ان شرطـــا رئيسيا من شروط العلاج الناجح ، ان تحافظ على ما يحدث امامها كسر ابدي ، وان تكتفي بتلخيص الامر امام زوجها ، بانها تواصل العلاج !

كانت تتمدد بين البخور والعفونة والتراتيل الحزينـــة ، والشخص يتحسس مشط القدمين ، فالساق ، فبطة الرجلين ، فالركبتين ، فالفخذين وهو يطرد الجن الذي استوطن الفـخ وما زال يقاوم . هاهو يرجوه ،يتلو ، يرغي ، فتحس المرأة ان صوتا ينطلق من فخذيها ويرد على حوارات الشيخ . « لقد خرج» .

وفي الاسبوع الثاني تحول الجن الى الرقبـة والصـدر . خلعت المرأة ثوبها من النصف العلوي ، حتى لا يجد الجن مكانـا يلوذ به . والشيخ، باصابعه العشرة، يهبط مع الرقبة الى الصدر، وينتشر يمينا ويسارا ، وكأنه يمسح الجن السائل ، فتنفر حلمتا الثديين ، وشفيقة مخدرة بين البخور والعفونة والتراتيل .

« واخيرا .. هذا الملعون استوطن مكان الجنين. اقد دخل الرحم ، بعد ان طردته من الفخذين والصدر ، وبمشيئة اللـــه ، سأطرده نهائيا في هذه الجلسة» .

غمر وجه المراة نور باهت ، والعلاج يشرف على نهايتـــه ، وفي مؤخرة الصورة اولاد يلعبون ويملأون الحارة ضجيجا .

« ولكنك تقوم بما يقوم به زوجي » . « زوجك عقيم ولا يحمل اطفالا » . « انت الان تغضب وجه الله فتأخذ ما هو ليس لك » . « مشكلتي يا ابنتي مع الجن وليس معك » . « ولكنك تصل الى الجن من خلال جسدي ». « فعلا ، انه يستوطن جسدك ». « لا تضغط على خاصرتي ايها الشيخ !» . « تحملي يا ابنتي الجن على الابواب » !!

ادركت شفيقة ، بعد مرور اسبوع ، على محاولات طرد الجن من الرحم ، ان الشيخ وادي قطع طريق اللاعودة . فهي لا تستطيع ان تبوح لزوجها بما يفعله « العلاج » ، كأن تقول مثلا انها تخونه مع الشيخ يوميا تحت طائلة الشفاء ! وحتى اذا نطقت بكل حركة فمن يصدق ان الشيخ الجليل يصادق الجن ويخلقهم على هواه ، بل ويبحث لهم عن اماكن استقرار في اجساد المريضات بالعقم .

« ايها الشيخ الازعر لا تتلو شيئا ، انا جاهزة » . « ايتها الفاكهة الرائعة ، لن اطرد الجن ،وسأعطيك ولدا » . « ومدة العلاج ؟». « شهر على الاقل باستثناء العادة الشهرية »! . « اذن عندما تأتي العادة سنوقف علاقتنا ». « لي بذمتك اسبوع العادة، سنعوضه في مطلع الشهر القادم ، حتى نضمن الكبش المؤخر ». « بعد الولد الاول سأتوقف». « والثاني ألا ترغبين ان يكون عن طريق الشيخ وادي ؟ فمن سيحضره اذا ؟؟ » . « سأفتش عن شيخ جديد !». « لن تجدي في هذه المنطقة سواي ». « وزوجة عبد الهادي؟» . « مالها؟» . «اذن انت احضرت ولدها الاول» . « لا والله .. انا أخرجت الجن من الرحم كما فعلت معك ». « أنت سافل ». « انت رائعة ، لو كان الجن شعبا اطردتهم واحدا واحدا » . « أنت كلب ». « وانت كلبة ، ولكننا لا نطرد الجن على طريقتهم ». « حتى الكلاب تزاحمها على طرائقها ؟» . « ... ». « وماذا ستقول للرب في يوم القيامة ؟» . « سأقول له يا ربي اعطني جسدا اطرد الجن منه ، شرط ان يكون لامرأة جميلة مثلك » .

في الثاني عشر من تشرين الاول عام ١٨٦٩ ، في شهر صدور

قانون تملك الاجانب ، ولدت شفيقة ابنها البكر ، ففقز انور فرحا ، ووافق على الفور بان يسميه سعيدا . وبعد ان قدم الكبش المؤخر ، جاء الشيخ وادي ليبارك الولد . ويتلو الاذان فوق رأسه . كانت شفيقة ترمق الشيخ وهو يتلو وكأنه صوت امتد الى الافق ، ويتلو فوق رأس الولد ، تفاصيل الاذان جملة جملة . وعندما وقف امام فرشة الزوجة ، انسحب الزوج، عسى ان يتمكن الشيخ الجليل من طرد الجن الى الابد . كان يسمعه من حوش الدار وهو يلقي الكلمات المبهمة ، وبين المقاطع يتدلى كعنقود من العنب الى وجه شفيقة ويقبلها ، ويرجوها ان تحافظ على الجن حتى السنة القادمة .

(٢) سعيد انور محمود

توقف انور محمود عن المشاركة في جني القطن في صفد ، واقتنع بعد حملة نابليون على عكا ، انه ان يجد منزلا صالحا للسكن ، فعاد الى القرية مستسلما للفشل والخيبة . كان سعيد ينمو كالخنازير على النفايات، ويكبر كشجرة برية . وقبل ان يصل الى العاشرة ، مات ابوه ، ولم يخلف له سوى الاعتقاد بانهم اقرباء لآل وادي من حيث الجد . وبالتالي فهو ليس مقطوعا من شجرة . ولكن الشيخ لم يعش طويلا ، ففي العام التالي لموت ابيه ،مات هو الآخر .

ذراعاه خرجتا ذات صيف من القرية ، مرورا بسهل مرج ابن عامر ، ذلك البساط القمحي الاخضر ، الذي يلتئم في طرفه الجنوبي بسهل زرعين ، ويمتد في طرفه الغربي حتى يلامس المدن الساهرة على الساحل . على ارصفة القدس ، شاهد فقراء اليهود يستعطون السابلة ويتضورون جوعا . هرب من الجوع الى يافا ، فتلقفه الصائدون . ومن البحر والاغاني، كانت تتكاثف الاحاديث عن مستعمرة بيتح تكفا وعن اليمنيين . نفقوا في مواجهة البرد والملاريا والتيفوس وفقر الدم . انساقوا وراء ذقن نصاب وتركوا ارضهم الغنية للامام، وجاءوا وهم ينتظرون

لكل واحد منهم شجرة تين وكرمة عنب . سكنوا في صرائف من التنك . بلا شبابيك او سقوف ، ونفقوا واحدا وراء الاخر .

كان الحنين يشده الى القرية ، فعاد حاملا قربة ماء والف بشلك وثوبا لامه .

« يا أمي اللنبي دخل القدس !» . « من هو اللنبي ؟ » .

« قائد بريطاني وانتهى الاتراك » . « وهل وجدت عملا ؟» .
« يا امي طردنا الاتراك » . « ومن جاء بعدهم ؟»

وعندما فارقت الحياة كان سعيد عازبا يبحث عن ابنة الحلال ، ويعزي نفسه بالصبر . وفي « بيت داري » وجدها ، ارملة في الثلاثين ، انجبت ولدين اخذهما الاب بعد الطلاق . ومن اجلها استقر في قرية « بيت داري »، وسمى الابنة الاولى « دخيلة » . لقد جاءت البنت ، عندما غرمت بيت داري ثلاثة الاف جنيه فلسطيني ، لمشاركتها في ثورة آب ١٩٢٩ . وكان لا بد من تقسيم المبلغ على العائلات ، وكان نصيبه عشرين جنيها ، فكيف يتدبر امر هذا المبلغ ؟

هاجر الى الحولة مع زوجته و «دخيلة» ، وعمل في الزراعة الموسمية بالمحاصصة ، وشارك في صناعة الحصر المزركشة . وعندما استولى اليهود على مستنقعات الحولة ، بشرائها من السلام البيروتية ، خرجت عائلة سعيد مع ستة عشر الف عائلة شردت من اراضيها . وقبل اسبوعين من الخروج ، وضعت زوجته الولد الاول . وفي غمرة فرحه كان يفتش عن اسم لائق ، فاشتقه من الازمة « هذا الزطي ، النوري ، الارناؤوطي ، لماذا جاء ؟.. آه .. ارناؤوط » .

عاد الى عباد شمس ، فوجدها قد توسعت ، ومنزل ابيه ما زال على حاله . ولم يبرح القرية الا مرة واحدة عندما زار بيت داري ودفع التزامات التغريم الجماعي . وفي مارس من عام ١٩٣٩ ، حين كانت المدن تعلن الاضراب حدادا على استشهاد عبد الرحيم الحاج محمد ، القائد البارز في الثورة ، نفق سعيد ، ورقد رقدته الاخيرة ، ودفن الى جوار قبر ابيه وامه .

(٣) ارناؤوط سعيد

احتاطت القرية ضد المفاجآت ، حتى لا يذهب احـد ابنائها الى المعسكرات البريطانية في الحرب العالمية الثانية . نظفـت كهوف وادي الصرار ، واصبحت سكنا نهاريا للرجال والشبان في سن التجنيد . وارناؤوط كان طفلا في الثامنة ، يجري دون قيود بين القرية والكهوف .

لم تعش القرية ويلات الحرب ، وكأنها مرمية في ملجـأ ، ولم يغادرها رجل واحد . وعندما طبق نظام التعتيم ، كانت امه «حلوة» تبكي تلك الغربة بين بيت داري والحولة وعباد شمس « نعيش هنا وندفن الى جوارهم » !

مرة واحدة جربت القرية الحرب ، وقاتلت خلف متاريس التراب ومن على أسطح المنازل . كـان الاطفال يحدقـون بتلـك المواسير الجهنمية ، ويقلدون رجالهم ببنـادق من الخشب او البوص . وعلى البيادر ، كانت القرية تشهد لاول مرة في تاريخها ، عملية اعدام علنية . فصيل الاعدام يصوب بنادقه نحو الديراوي شيخ المجاهدين ، ونحو اربعة من آل بدران ، السعيد ، منسي ، وادي . وسكان القرية يحبسون دموعهم وغضبهم المهزوم عندمدخل القرية . في تلك الليلة عرفت عباد شمس طعم الحرب ، وسمعت بقيام دولة جديدة !

ايام مذهلة مرت على القرية ، وارنـاؤوط يزرع الارض ، يسمدها ، يقلع اعشابها ، ويجني المحصول . فمنذ عام ١٩٣٨ ، حين فرزت القرية ارضها لاول مرة ، وخرجت من المشـاع الى الملكية ، نال ارناؤوط نصيب والدته وابيه وجده . وفي منتصف الخمسينات تزوج الاخت الصغرى لجميل وادي ، وبدأت تراوده فكرة بناء المقهى والتخلص من الفلاحة . باع ارضه الى عاشـور عبدالهادي ، واقام المقهى ، الذي استبدله الفلاحون بدور المضافة . ولم تعش « حلوة » لترى ابنها وقد غدا شيئا مذكورا في القرية ، ولم تشاهد ابنته البكر «ثريا» ، اذ فارقت الحياة بعد حـرب

السويس ، عندما كان ارناؤوط الذراع الايمن للمختار عاشــور عبد الهادي ، واحد الاركان المقررة في حياة عباد شمس .

كانت القرية تنمو ببطء ، ونما معها دور ارناؤوط ومقهاه، خاصة عندما اصبح عضوا في المجلس المحلي المنتخب . وعندما داسه الجنود تحت اقدامهم ، وقال احدهم « العق دمــك ايهــا الوسخ » . فقد ارناؤوط اي رابطة بينه وبين عباد شمس ، او تلك الآمال المطمورة في صدره . كانت « ثريا » ترتعد خــــوفا ، وهربت من الفجوة الصغيرة التي تصل البيت بالمقهى ، وظلــت تنتظر انسحاب الجنود .

●

سقط جسدها على حافـــة السرير ، كحجر يسقــط في الهاوية .

لماذا لا تبيعون المقهى وتأتون الى عباد شمس ب ؟

استقر رأسها بين يديها وكأنها تغفو . وجه ارناؤوط يئن تحت اقدام الجنود ويبتل شارباه بالدم .

ــ خليل السيلاوي سيشتـــري المقهى وسيفتح شركـــة التوريدات .

لم ترفع بصرها او تخفضه .

ــ سأفاتح ارناؤوط .. اطمئني .

●

على سريره في المستشفى تلقى اعتذار كاتسمان نيابة عــن الجنود ، واستمع بانتباه شديد الى مشروع مغادرة القرية . منذ تلك اللحظة وارناؤوط يحاول اقناع نفسه بجدوى الرحيل .

ــ لا تنسى يا ارناؤوط ان عباد شمس ب ستتوسع وستصبح مدينـــــة .

ــ ومن يضمن ذلك يا خليل ؟

ــ اريد ان افهم ، ما الذي تخسره انت ؟ انت تبيعني المنزل والمقهى وتأخذ نقودك . وعند الانتقال تأخذ المقهى والبيت مجانا .

ـ . . . . .
ـ وحتى تطمئن ، اذا اردت العودة . سأعيد الك المنـــزل والمقهى .
ـ . . :
ـ اعقل وتوكـل .

●

الدوامة التي صنعها تردد ارناؤوط ، كانت تساعده في اغلاق كافة مسارب الخلاص من الرحيل . مأزق بناه لنفسه بطريقـة محكمة . فعلاقته مع جميل وادي مقطوعة منذ مدة . حتى اخته عندما ماتت لم يدخل منزل ارناؤوط ، وانتظر رؤيتها على المقبـرة قبل الدفن . ولو لم تكن الامور كذلك ، لذهب اليه شاكيا ، وطالبا النجدة . درب جميل وادي مغلقة ودرب عاشور عبد الهادي ممتلئة بالصمت ، فماذا يقول ؟ السيلاوي ؟! انه يحلم بيافطة الشركـة ولا يرى غيرها . الشيخ عبد النور سيغرقه في الايات والاحاديث، ولن يخرج من بحره الا مبللا .

اغلق الطرق ، وأغلق اذنيه وانتقل ، وترك بيته ومقهـــاه لاحلام خليل السيلاوي « لن سيورد ما دامت جميع طلبات رخص البناء قد رفضت ؟!» . وعندما تم تعيين سميح العزوني بـدلا من السيلاوي مديرا المدرسة ، عقب كاتسمان مواسيا « .. فسميح العزوني ، كما تعرف ، صديق موثوق طيلة دراسته في الجامعـة العبرية ، ومن الممكن الاستغناء عنه او نقله في اية لحظة .. مكانك الاحتياط لا خوف عليه !» .

●

اسند ظهره الى المقعـــد واخـــذ نفسا عميقا ، فقرقرت «الشيشة » وانتشى ارناؤوط . شعور خانق بالوحدة والوحشة، يذوب في فقاعات الماء ، ويتمدد في الخرطوم ، وينتقل الى فمـه ودماغه . انه يحس بنمنمة سريان الضيق الى رئتيه ، وكبـده . ما الذي فعلته يا ارناؤوط ؟ وبارودة الخشب، وانت تعدو كالحمام بين المتاريس الترابية والبيوت المتراصة مثل اقراص النحـل ؟!

وبين البيوت والكهوف المنتشرة في سفح وادي الصرار . كنت حجلة مفتونة بساقيها تقفز بين الصخور والشجيرات ، وتدخل طاقة وتخرج من اخرى ، والكل يمسد في اذنيك الثناء والتبجيل. سيكرر هذا الولد بطولة جده . في بيتك او مقهاك ، كنت سلطانا لا تتطاول عليه صلاحيات المجلس المحلي او وزارة الداخلية . « الفراغ الواسع والارض الصامتة والاشجار التي لا تبوح الا للريح! اوه ، ايتها الايام المرة ، ما الذي سيأتي عند الغروب ؟ ثريا ! من اجلك فعلت هذا ! كنت اعتبر المقهى دجاجة بياضة تفرخ لك الذهب والعصمليات ! كنت كصائد عبر اليم في غير اوانه ، وعاد محملا بالسمك او الخيبة . كان علي ان اوقع عقد الايجار المنزل والمقهى . اعرف اننا نعيش على قاع من الماء ، فتشبثي بالاخشاب العالقة في الموج . « اجراءات روتينة » ، اوتصدقين قول كاتسمان هذا ؟! ما الذي غطى عيوني حتى عميت ؟ كنت مزهوا والكل يغنون « مشروب اليوم الاول كله على حسابي » . ولكنهم من سكان المستعمرة وانا لا اضمن قدومهم كل يوم . ها نحن نتحقق من ذلك، انصرفوا الى اعمالهم ، وتركونا للصمت والملل والانتظار . لا يجوز ان يستمر هذا الوضع ، سأفاتح كاتسمان ، يا الهي ما اغبى هذا المشروع المجنون !» .

ـ لا احد يزور المقهى يا سيدي .

ـ ماذا تقول يا ارناؤوط ؟ وهل استطيع ارغام الناس على زيارتك ؟!

ـ ولكن يا سيدي

ـ عندي اقتراح يفيدك كصديق ولا تناقشني فيه . يجب تحويل المقهى الى بار والاستفادة من وجود ابنتك .

ـ ابنتي ؟

زاغ بصره ، ونفرت عروق وجهه .

ـ كيف ؟

ـ تعلمها الرقص مثلا .

قالها وانصرف ، وترك ارناؤوط يلملم كبرياءه باعياء . احس بثقل قدميه وتخيل ثريا وسط الحلبة ترقص ويعلو حولها

الصفير والنكات والمناوشات ، وفي لحظة ما ، تخيل نفسه يحمل دفا ينقر عليه ، فتمتم « قواد افرنجي » !

ـ اموت يا ابنتي ولا تعملين راقصة .

ـ راقصة ؟ ومن قال هذا ؟

أطرق راسه ووارى نقطة دمع طفرت من عينيه ، وقال وحنكه يرتعش :

ـ كاتسمان .

جسد ثريا يرتجف ، وتطفح من عيونها دموع ساخنة سخية، فتعض شفتها السفلى وتشهق ثم تقول :

ـ لماذا لا تحاول مع السيلاوي فربما يعيد لنا البيت والمقهى؟

ـ السيلاوي مثلنا لا حيلة له ، امس اخذوا منه البيت وسيسكن بجوارنا !

ـ لنعد يا ابي الى القرية ، ودعنا نموت من الجوع .

ـ اللقمة مذلة ، وما اخشاه ان افتح معدتي لحجارة القرية.

اكثر ما كان يجرح كبرياء ارناؤوط ، ان يتحلق اطفال المستعمرة وفتيانها حوله لاخذ الصور التذكارية ، وكأنه قطعة اثرية خرجت للتو مع الحفريات ، يهش الاطفال فيتراكضون ، ثم يغمض عينيه ويستسلم للكاميرا بتأفف . وهربا من رؤية ثريا والاطفال وهم يتهقهون فوق رأسه ، استغنى عن الشيشة وتحول الى السيجارة والكحول . كان البؤس يعشعش في ثيابه ، وتنتفخ عيناه ، وتلمع بشرة وجهه ، وهو يسكب الكأس الاخير ويراقب الطاولات المفرغة من الزبائن . ولم يفق من خدره الدائم الا على صوت كاتسمان وهو يبلغه تعيينه مساعد مدير للمقهى براتب محترم !

ـ يا ارناؤوط اسمعني جيدا ، ودعك من العناد الشرقي المعروف ، راتبك وراتب ابنتك يكفيان لان تعيش ملكا !

ومن يومها لم يعد ارناؤوط يجلس خلف الطاولة ، واخذ يساعد ابنته في تقديم المشروب ثم ينزوي يدخن ويشرب الكحول.

وعندما انتقل السيلاوي وعبوره ، اصبحوا يفقدون وعيهم معا ، على طاولة واحدة .

●

لم يعرف كيف تسلل الماء الازرق الى عينيه ، فلم يعد يتبين وجوه الناس ولون الطعام ودموع ثريا . قبع في المنزل عاجزا عن العمل ، يزور البار في فترات متباعدة ، واصبح المقهى مشروع حلم قتيل . انه يعرف البار شبرا شبرا ، صالة الشراب ، المستودع ، المطبخ ، الحمام . وتلك الفسحة المهملة بين المطبخ والمستودع . حين وضعوا ستارة تخفي متر الفراغ المتبقي ، والحل يا ابنتي ؟ لم تكن الاختيارات تحدد مسار الطريق ، وثلاثتهم اكتشفوا في سهرة مسائية ، جاء في آخرها عبورة ، ان زواج ثريا من خليل السيلاوي هو الحل . ضحك وارتسمت علامات البهجة في صدغين غائرين ، مد عصاه وقبل رأس ابنته واحتضن السيلاوي ، واختفى .

هل حدث الحريق حقا ؟ المقهى المتهدم يشهد على النار ، لعله في لحظة ما ، دلق ما يملك من كاز على ارض البناء الخشبي ، واشعل النار بعد أن سكب على نفسه ما يكفي لاحتراق الملابس . اغلق الباب الخارجي ، فما زال يحمل مفتاحا قديما ، ولم يكتب كلمة او يترك اثرا ، وانتظر النار . « حرق المقهى واحترق »، كلهم يلخصون الحادث بهذه الكلمات الثلاثة ، وثريا تفتش عن سبب وجيه يرضي ضميرها ! وعندما اشتعل المخزن كان ارناؤوط يتبين بوضوح كل شيء ، واللهب الذهبي يمسح عن عينيه حجاب الزرقة والغبش . كاتسمان كان يلطم كطفل فقد حقيبته المدرسية ، فقد انهار ثلث مشروعه على الورق وتقلص عدد السكان الى ثلاثة . كان كاتسمان ، الذي لم يعد اسما او جسدا ، دائم الدوران حول المقر والمركز في تل ابيب « سأكمل المشروع ولو احترق العالم ». صرخ غاضبا ، واطلق رصاصتين من مسدسه ، وقام دون ان يرسم على الورق خطا واحدا .

(ث) عاشور عبد الهادي

ـ ماذا سيفعل هؤلاء الكلاب؟

ـ ... التمرد .

ـ تمرد في قفص .

ـ يا كاتسمان

ـ يا عاشور فكر بمصلحتنا ، بامكانكم استخدام سياراتنا. سنمد طريقا بين الاسفلت والمستوطنة ، وسنعبده ، ولا داعي لشق طريقين .

ـ ولكن السكان ان يستخدموا سياراتكم ؟

ـ اذن ليمشوا على اقدامهم .

بعد هذه المحادثة اقتنع عاشور عبد الهادي انه يسير الى طريق مسدود . ولم يكن مرتاحا ، في قرارة نفسه ، الى قرار مصادرة اراضيه وخنق القرية . وتفاديا للاحراج وامعانا في العزلة ، طلب من زوجته ان ترد على السائلين « عاشور ليس هنا ، عاشور لم يعد ، عاشور في حيفا ». وداخل هذه العزلة كان يرتب مع زوجته امر الرحيل بسرية مطلقة . فلم يعلم سكان القرية ان امونة ، زوجة عاشور ، سافرت الى حيفا مرتين ، ومن يومها اصبحت منجرة الموبيليا مناصفة بين الاخوين . وعندما دخل الجيش المرة الثانية ، قام عاشور بتهريب ما تبقى من

مقتنيات ثمينة تحت غطاء الزيارة العائلية . وتعززت لديه القناعة بعدم تجديد ترشيح نفسه في انتخابات المجلس المحلي . وكثيرا ما ردد امام زوجته « لا اريد ان اتحول الى جرسون في بار كما فعل ارناؤوط » .

وعلى النقيض ، كان رأي كاتسمان . « قائمة رباعية ندعمها نحن فما الذي تخشاه يا عاشور ؟! انت كرئيس للمجلس وعضوية نعيم الجرس وسميح العزوني ولا بأس من اعادة ترشيح خليل السيلاوي ، حتى ندخل منطقة ب رسميا في القرية ».

ـ نعيم الجرس في تل ابيب .
ـ سنحضره ..
ـ المجلس بحاجة الى شاب جديد مثل سميح العزوني .
ـ سيترشح في قائمة انت رئيسها .
ـ واذا فشلنا ؟
ـ سنحجب عنهم امكانية العمل .

خرج كاتسمان فرحا ، فيما اضطر عاشور الى الانحناء حتى يستكمل ترتيبات النقل الى حيفا . وجاء نعيم الجرس ومعه سيارتان محملتان بالارز والقمح والسكر .

وكما قال فهي اموال الزكاة المتجمعة منذ غيابه ، واهل القرية احق بها .

ـ انها رشوة من اجل الانتخابات .

قال رضوان الديراوي واردف :

ـ ولكننا سنأكل الرشوة ونطرد الراشي !

فتدخل احمد منسي وقال بعصبية :

ـ لا نريد اوقية واحدة من هذا اللص .

وعقب موسى بدران :

ـ سنرغمه على بلعها .

صمت الجميع وابو فارس يبتسم بنشوة ويقول :

ـ سكان القرية يعرفون نعيم الجرس جيدا ، يزورهم مرة

كل اربع سنوات حاملا الاكياس حتى يحافظ على عضويته في المجلس المحلي . وعلينا ان نتصرف بذكاء ، فنشكل لجنة لتوزيع « الزكاة » ، فالناس بحاجة الى الارز والطحين والسكر ..
ـ معنى ذلك ان نشتغل في خدمةهذا الثور !
ـ لا يا احمد لا تتسرع .. القرية مضمونة ولن يفوز واحدا منهم .

وعندما سمع نعيم الجرس ، ان احمد منسي هو مسؤول التوزيع شد شعر رأسه وصرخ بعصبية :
ـ عملها الديراوي ! سيأكلون الاكياس ويلعنون جد نعيم الجرس . الحق عليك يا عاشور ، لماذا لم ترسل الحاج جميل دياب او عبورة لتوزيع الزكاة ؟!
ـ اي زكاة يا نعيم ؟! خليها مستورة !
ـ حتى انت يا صديقي ؟!
ـ ان ننجح .
ـ انت متشائم ، اطعم الفم تخجل العين ، علينا اسكاتهم بالرشاوي . لقد اقنعت سميح العزوني ان يوزع كمية من الاقلام والدفاتر على الطلبة .
ـ وانا ماذا تقترح علي ؟!

صمت نعيم الجرس ، فسأله عاشور ثانية :
ـ وخليل السيلاوي ما الذي سيقدمه ؟ علبة خضار أم زجاجة من النوع الذي يغرق نفسه فيه ؟!
ـ يا عاشور .. انت لا تناقش بجدية .
ـ الامور تغيرت .
ـ لم تتغير .. وسترى بعينيك .

عاد طلبة المدارس وهم فرحين بالاقلام والدفاتر ، وانتقلت الفرحة الى عيون وصدور بعض الامهات . والنساء اللواتي كشفن اللعبة ، تصرفن على نحو مختلف . تناولن الاقلام والدفاتر ورمينها « مال حرام من كيس الضابط كاتسمان » . ومع الرشاوي كانت حيطان القرية تستقبل الملصقات الملونة لصور واسماء وافضال عاشور عبد الهادي ، نعيم الجرس ، سميع العزوني وخليل

السيلاوي . وفي مواجهة ذلك ، امتلأت الازقة والشوارع باوراق الكرتون التي كتبها هواة الخط من الطلبة وهي تحمل اسماء رضوان الديراوي وجميل وادي وجورج حنا واحمد منسي .

الخطوة الثانية كانت من اقتراح نعيم الجرس . فهو مقتنع كل الاقتناع ، بان المواجهة مع السكان ، والحديث وجها لوجه، وقلبا لقلب ، كفيلة باسقاط القائمة الاخرى . ورغم تحفظ عاشور عبد الهادي على الاقتراح ، فقد وافق مرغما ، بعد ضغوط الضابط كاتسمان . ولاستكمال اجراءات التحضير ، نقل الاقتراح الى جورج حنا ، كرئيس النادي ، المكان المقترح لاقامة اللقاء . ثار جورج حنا واخذ يتوعد ، فقاطعه ابو فارس :

ـ انها فرصتنا .. دعهم يقدمون اسوأ دعاية لانفسهم

ـ ربما يؤثرون على الجمهور .

ـ الجمهور يفكر بعقله لا بأحذيته .. فلماذا تسخر من عقول الفلاحين ؟!

غصت قاعة النادي والساحة الملاصقة بالرجال والفتيان والاولاد . الكل يهمهم ويرغب في رؤية نعيم الجرس ، فما الذي سيقوله بعد غياب اربع سنوات ؟! ساد صمت وترقب عندما صعد نعيم الجرس الى دكة الاسمنت « مسرح النادي » . وقبل ان يبدأ حديثه سأله احمد منسي ساخرا :

ـ كيف حال المطعم بتل ابيب يا استاذ نعيم الجرس ؟

سرت موجة من الضحك والهرج بين الجمهور ، واحس نعيم الجرس بان خرطوما من البخار الحار قد انسكب على وجهه. قال كلمة « اخواني » في محاولة للسيطرة على نفسه ، واظهار تماسكه .

ـ شكرا على السكر يا حاج !

قال صوت غامزا ، وعقب آخر :

ـ لا نريد بيتا في تل ابيب او عباد شمس ب . سنبقى في القرية حتى ولو اكلنا التراب .

اغمض نعيم الجرس عينيه ، في محاولة لطرد شبح الفلاحين

وتعليقاتهم ، وخاصة تلك العيون المبهمة التي تنضح استهزاء .
« اخواني .. سلام الله عليكم » ، فصفق فلاح مما اشاع جوا من الضحك ، ووقف ثم قال :
ـ نسيت ان تكتب على الاكياس هدية من الشعب الاميركي !

فصفق الجمهور بحماس ، ونزل نعيم الجرس من على المنصة غاضبا ، وطلب من عاشور عبد الهادي ان يصعد ، فهو ادرى بهؤلاء « البهائم » . كان جورج حنا يكاد يزغرد من الفرحة ، عندما نزل نعيم الجرس ولم يتحدث بكلمة واحدة عن فضائله ! وفكر ان يفسدخطة عاشور ايضا . وكعريف للمهرجان ، صعد مرحا وهو زائغ البصر ، يفكر ، والجمهور يتطلع بانتباه الى الشخص القادم .

ـ اخواني . اقدم لكم قائدنا المحترم المحبوب ، الاستاذ عاشور عبد الهادي ، الذي حمى القرية من الجيش ! ووقف ضد سياسة سلب ومصادرة الاراضي ، بدليل انه قاتل بشراسة دفاعا عن منازلكم وعن قطعة الارض التي تخصه ، حيث استكملوا طوق المحاصرة من خلالها ، قائدنا المحبوب ، شق لنا الطريق المسفلت عبر التلال ، واستنكر رحيل السيلاوي وارناؤوط الى ما يسمى عباد شمس ب .. الى كلمة القائد !!

تهدم عاشور عبد الهادي وهو ما يزال جالسا على المقعد ، واحس ان فخ نعيم الجرس كان من نصيبه ايضا . فماذا يقول بعد هذه المقدمة ، المستفيضة بالهجوم المبطن والمكشوف ؟! صعد الى المنصة ، يجرجر رجليه بتردد ظاهر ، ووقف صامتا .

قال طارق ابو وردة ، قاطعا لحظة الصمت :

ـ لم تعد تحلق عندي يا رئيسنا .. هل وجدت حلاقا جديدا في المستعمرة ؟

اخرج عاشور منديلا من جيبه ومسح عرقه وهو يقلب يديه ويقول : « لا حول ولا قوة الا بالله » . فقهقه الجمهور وانفتحت تعليقات متعددة : « عيب يا عاشور » ، « معك حق شو بدك تحكي !، « قاله بفيلك ، قاله صاحيلك » ، « اللي على بطنه بطحة بحسس عليها».

نزل عاشور وانفض المهرجان . وعلى امتداد الطريق بين النادي والمنزل ، كان نعيم الجرس يلعن سكان القرية ويخص الديراوي بنصيب الاسد « اؤكد لك يا عاشور .. ان كل السفلة هم من الشيوعيين ، وهم لا يعبرون عن رأي القرية . اقسم بشرفي سأرغمهم على دفع الثمن ، هذه مؤامرة ».

الانتخابات كانت اسرع من وعود نعيم الجرس وتهديداته، اذ سقطت قائمة عاشور عبد الهادي كلها . « انا نعيم الجرس، واسقط في الانتخابات ! » . لم يجبه عاشور ، وكان سعيدا اذ ازيح الحجر الاكبر في طريق رحيله الى حيفا ، ومشاركة اخيه في منجرة الموبيليا .

– سنشتري المنزل يا عاشور .

– بيتي ؟!

– نعم .. سنشتريه وكفى .

– وبيت الحاج جميل ذياب ؟

– سنشتريه .

– للنسف ؟!

– طبعا .. سأحول عباد شمس الى اطلال ، وستأكلهم الحشرات اذا لم يرحلوا .

– واذا عدت بعد اربع سنوات ؟

– سنبني لك قصرا .. لا بيتا .

نعيم الجرس ، لم يطق رؤية البيوت الطينية الواطئة بعد فشله في الانتخابات ، انسل هاربا الى تل ابيب وهو يعد كاتسمان ببناء منزلين ، على حسابه الخاص ، في قرية عباد شمس ب ، « وسأجعلهم يأكلون اصابعهم حسرة وندما ».

وعندما شاهد سكان القرية الشاحنات وهي تعود محملة بأثاث عاشور ، وتسبقها سيارة تضم عاشور عبد الهادي وزوجته ونعيم الجرس وجميل ذياب ، عقب احد الفلاحين ساخرا :

– جاءوا بشاحنات الطحين ، وعادوا يحملون امتعتهم .

- ١٣ -

ج ـ محمود الجمل

« الراعي »

دائرة وساق وتبدو من بعيد وكأنها فزاعة عصافير .

دائرة وساق وتبدو من داخلها وكأنها قرية مهجورة .

هكذا كانت عباد شمس ظهرا ، عندما دوى صوت ناقلات الجنود واللاندروفرات في ساحة المطحنة .

رفض طلب زوجته في ان يحتمي في المسجد او الكنيسة. كان يشمر عن عضلات رخوة صغيرة ، ويقسم براس ابيه ، انه رجل ولا كل الرجال . فكيف يطوي رأسه كالنساء في المسجد او الكنيسة ؟!

كانت الهراوات اسرع من حوارهما ، وتحت الركل والرفس، شاهد الوجوه التي يعرفها ، والشمس لم تهبط بعد خلف التلال البعيدة .

عباد شمس تفتح وجهها للندى وضوء الفجر ، والقصص

تتوالى في جو الغرفة العابق بالدخان الكثيف لحريق الاخشاب.
نقلوه الى سجن شطة ، وربما لن ينفذ من التعذيب . انا متأكد
انه فقد واحدة من عينيه ،وان احد عمال التنظيفات في مستشفى
رحبام بحيفا شاهده بأم عينيه . كانت زوجته غارقة في الاشاعات
والمرارة ، عندما عاد محمود الجمل ، هيكلا عظميا ، بعينين
سليمتين ولسان الثغ .

●

اعتاد الراعي محمود الجمل قبل دخول الجيش ان يستظل
وقطيعه ظهرا ، في فيء البساتين الشرقية . ينسل من القرية
والاولاد يصيحون « غاعي » ويقصدون راعي ، فيثور ويهشهم
وهو يصيح : « يلعن ابوكم على ابو اللي غبوكم ». اما بنات القرية
فكن يتحسرن على جماله «الضائع » ، فتقول بعضهن « خسارة
يطلع هذا الجمال كله للراعي »، وتقول امرأة « ولك مش مهم ،
بس يا ريتو مش اهبل » . الرجال يقدرونه ، ولكنه لا يحظى
بصداقات متينة معهم . ففي غروب كل شمس ، بعد ان يعيد
القطيع الى الحظيرة ، ينـدس بين الاولاد ، ويضع سماعة
الترانزستور في اذنه ، ويبحث عن الاخبار .

مرة اضاع كبشا يخص جميل وادي ، فادعى ان الذئب
أكله .

ــ ولك اي ذئب ؟
ــ اخذوه .
ــ مـن ؟
ــ هـم
ــ في المعسكر
ــ انت قلت المعسكغ .. وانا لا ذنب لي .
ــ ولماذا تخاف يا اهبل ؟
ــ ...
ــ مـن ؟
ــ ...
ــ انصرف !

وشاعت القصة في القرية . « الاهبل فقد الكبش وغدا يفقد الباقي » ، « هذا المجنون لا يؤتمن على قطيع » . « رغم العذاب الذي تحمله في السجن، فهو ارنب في البرية » ، « ماذا يفعل محمود الجمل امام الجيش ؟» ، « الجيش لم يدخل من اجل الراعي ، وانما دخل من اجلنا ».

وفي الليل ، ذهب محمود الجمل الى صديقه احمد منسي، حتى لا يراه احد اعوان عاشور ويتهمه بالشيوعية . شكا له توبيخ جميل وادي وقال :

ـ الجندي اخذ الكبش امامي .
ـ ولماذا اخفيت ذلك عن جميل وادي ؟
ـ خفت منه ، ومن النتيجة .
ـ ....
ـ اغلقوا البساتين الشرقية .
ـ امامك الطريق .. وانتبه للكباش ، وكن رجلا .
ـ ....

ومن صباح اليوم الثاني ، اصبح وجود القطيع احدى علامات الطريق الترابي الجديد الى القرية . فبجوار الصخر ، وتحت الحجارة ، ومن الشجيرات ، تدرب القطيع على ايجاد مؤونته، وفقد تلك الصلة بينه وبين الاعشاب الطويلة . وفي الصيف ، في موسم الحصاد ، وعند انتهاء جني المزروعات الخضرية ، كان القطيع يجد مؤونة خاصة ودسمة ، ولكنها لا تكفي للحفاظ على قطيع كامل .

تدرب القطيع على اكل الورق ، فاندهش الراعي وكاد يطير من الفرح . وبدأ يدرب نفسه على مهمة جديدة ، بجمع بقايا عيدان الملوخية والملفوف والقرنبيط ، واقماع الباذنجان والكوسى، وقشر البطيخ والشمام والرمان ، وبقايا عروق الجلتون والدريهمة.

كان يجلس فوق صخرة تطل على الطريق . فيلحظ القادمين من الاسفلت والخارجين من القرية ، وخلفه تمتد البساتين الشرقية ، التي سيجت ، وعند اعشابها الطويلة يرعى قطيع اخر.

هناك. تحت اشجار البلوط . باوراقها الصيفية الخضراء ، كان يتسلى بفلق جوز البلوط الفج ، ويحاول ان يلقمه لعنزة نافرة فتبتعد غير مبالية . وبجانب قناة الماء . حيث يعلو شجر الجوز والصفصاف ، يسند رأسه الى جذع شجرة ويغمض عينيه في اغفاءة قصيرة . يمشي تحت الاوراق ، فيلحظ جرذ الحقل يصارع وقتا طويلا من اجل ان يثقب حبة البندق ، ثم يقفز هاربا، عندما يلحظ الراعي وهو يهش القطيع . شجر الزعرور ، بنواره الابيض في ايار ، وهو يغطي سياج البساتين ، وذلك السنجاب المسك ببذور الصنوبر ، يضعان للراعي الالثغ فرصة التدرب على الغناء . وعندما يغلبه النعاس مرة اخرى ، يضع حجرا ، ويلقي رأسه تحت شجرة دردار ، ويغفو والقطيع يحرسه ويحميه .

فوق الصخرة ، في منتصف الطريق ، يفرد حياته صفحة صفحة ، ويعود فيمررها دون ان يلقي نظرة خاطفة . هش القطيع وهو يقترب من الاسلاك وكان خائفا . لمحه الجندي فندت عنه ضحكة مكتومة .

ـ واخد .

قال الجندي مازحا فهز محمود كتفيه بالرفض .

ـ واخد .

قالها قاصدا تخويفه ، فأشار محمود الى رقبته بانهم « سيذبحونني » . صفعه الجندي على وجهه فسقط على الارض. وعندما هم بالوقوف ركله الجندي ، فعاد وسقط مرة اخرى. مسح الغبار والصرار العالقين على ملابسه وتقدم ، فدفعه الجندي في صدره ، تراجع بضع خطوات ثم سقط فوق عنزة وكاد ينشرخ رأسه . لم يعد يذكر حينها ، سوى وجه زوجته ، يطل من فوق رأس الجندي ويبصق عليه . ابنه الصغير ، عباس ، يخفي وجهه بيديه ، وكأنه لا يريد ان يصدق تعليماته : كن رجلا . نتر يده، وطرق على سترته ، وتقدم جاحظ العينين ، والجندي يضحك باستهزاء . لا يعرف ، كيف لف جسده كله، وكيف صفعت قبضته وجه الجندي فارتمى على الارض . ناخ عليه ، وترك رجله تبرك

على ساقه ، وهو يمسك شعره بكل قوة ويدق جبهته في الارض. وهاله ان يتحول ذلك النمرود الى بالون هواء ظل ينفس حتى انطوى تحته جسدا هامدا ، يحاول التملص ، يرفع رجليه ، فلا ينقلب . ومن يومها لم يعد يخشى جنديا ولا يهابه . واحس، في لحظة امتلاء ومعرفة ، ان تلك العضلات شبه الميتة ، قادرة على لوي عنق جندي حراسة على بوابة بيوت الزينكو الجديدة، وقرب البساتين الشرقية .

كان يظن ان حبرون هو سارق الكبش ، وبموته اعدم تلك الحادثة من حياته . وهاله ، في لحظة تعرف حقيقية على وجه الجندي ، رغم تمرغه بالتراب ، انه نفسه سارق الكبش ، وان تلك العلامة عند الجبهة ، لم تكن سوى تشابها بين الوجهين . وعندما عاد مرة اخرى ، يلف حول القطيع ويتفحصه ، رفع الراعي عصاه وصاح « امش ولا » . تراجع الجندي ولم يهرب . كانت ملامحه تتحول الى بالون هواء ، وذراعاه الى مخدتي اسفنج ، وهو يطوح الحجر على الراعي . طج الحجر على فخذه ، فشبت شعلة من الوهج والخدر واحس للحظة ان ساقه قد شلت. اخذ يعدو وهو يعرج، وبكل قوته ، قذف الحجر فسقط على كتف الجندي ، فتلكأ في الركض ، تلوى ، ثم قعد . وعندما وصله الراعي هم بالتقاط حجر جديد ، فسقط الى جواره . تطلع نحوه ولم يقو على النطق . رجله كلها احزمة مشدودة الى الالم ، تضغط على رئتيه . كلٌ واحد ، رفع حجرا بيده اليمنى واسقطه على اليد اليسرى للاخر . صرخا ، ومن بعيد ، كان القطيع يدور حول الطريق الترابي ، ويفتش بين الصخور عن الاعشاب والاوراق المتطايرة .

(ح) طارق ابو ورده

« حــلاق »

العتمة تطبق على ساحة المطحنة ، وياســين
المجنون لم يمر كعادته ، ويقرع باب الصالون ،:
« يا طارق !.. انا ! هل تقبلني الليلة ؟» ، فيما
ينسل صوت طارق ابو وردة من تحت الفراش
وفتيلة السراج « دبر حالك الليلة يا ياسين » !
ثم يعود الى سريره ، شديد الحنق ، وهو يلعن
اليوم الذي تعلم فيه هذه المهنة « السافلة » !

ولدت في الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٦ ، فــي قرية « يركا » ، والعيون تتوسم خيرا في هذا « البطل » القادم في زمن الكساد . طارق ، ولم يترددوا ، ولم يرسموا حــــدود المياه التي ستقطعها خيلي ، فقد كان الجو ملبدا بغيوم الهجرات اليهودية الجديدة . ليلتها كان ابي في عكا ، وعندما عاد في باص خير الله القبلاوي ، كان المعاون سليمان عبد المعطي والسائــق محمد الضبع يتسابقان لاخذ حلاوة « البشارة » .

تنكة زيت كاملة ، تقاسمها السائق والمعاون ، بسبب حضوري المفاجىء في كانون ثاني عام ١٩٤٦ . اي تفاؤل كان يستوطـــن

عقل ابي، حتى يوازي الاعلان عن قدومي ، بتنكـــة زيت ؟ كنت سادس مولود ، ينسكب في وجهه ، ولكني المولود الذكر الاول في هذه القائمة من البنات . ولولا القوانين ، لاخرج بندقيته من تحت التراب ، واطلق حتى الارتواء .

وعند الاعلان عن الفراغ في الشرق الاوسط ، ذهبت الـى « الرامه » لزيارة بيت عمتي ، كنا اربعتنا ، انا وهي وزوجهـــا وابنتها سميرة ، مأخوذين بما حصل لابن الرامة الاستـــاذ س. ش. مدرس فصلوه من عمله في قرية عين الاسد ، لانه وقف ضـــد قانون التجنيد الالزامي . « مجنون ، مجنون ولا يعرف مصلحته »، قالت عمتي ، وحين ذهبت الى النوم ، ذهب معي ذلك «المجنون» والمياه تغطي ركبتي وانا على ظهر حصان ابيض اخترق البحـــر وادق جدران الاسمنت . « البلوة اكبر » ، قال زوج عمتي واضاف « لقد قلبوا ناقلات الجنود » ، تطلعت الى يــــدي الصفيرتين ، وحلمت ان يدين مثلهما ، كانتا بين عشرات الزنود التي قلبـــت الشاحنات ، فامتلأ صدري باوراق الحلم وزوج عمتي يسترسل في تفسير سياسة الوقوف مع الواقف .

امامي تحولت وجهة نظر زوج عمتي الى حجارة صغيـــرة مرمية على قارعة الطريق . كانت الدولة تستكمل عدة النصب ، فتمنحنا دور ثور الحراثة ووقود الموت . لنا العمل الاسود فـــي ايلات ، وحراسة الحدود والسجون لنا ، وسلك الشرطـــة . يفتحون الاكفان في زي جندي او شرطي ويطلبون من احد شبابنا ان يغمض عينيه ، وان يغطس في هذا الوعاء القذر .

عند النهر ، حين تفقد الاحساس بتمايز الالوان والاطيـــاف، ينصبون جسدك متراسا في وجه اخيك ، ومن خلفك ، يستخدمك الحارس الذي معك ، متراسا حتى يطلق النار من فوق كتفيك . لا ، لسنا مساحات زجاج سيارات الاحتلال ! انت تمسح فتفتح الطريق امام البولدوز ليجرف منزلك ، ثم تمسح بقايا غبار بيتك، لترى دمك على الطريق .

فتيلة السراج لم تسقط ، حين سقط رأس
طارق ابو وردة ، وتراخت اصابع يديه، ونام على

وجهه . الاضواء الخافتة ؛ لا تمنح الخيـــول
فرصة كافية للكآبة او الفرح .. كان نائما .

الحصبة . ذاك البرغل الاحمر المنتشر على سطح قريـــة « يانوح » ، يسرق ، في وضح النهار . اطفالها . ويمرغ دولـة الاطباء في حوض ممتد من الوحل . ترتجف اصابعك وتهتز ، فتحكم قبضتك على الغضب، وتدق طاولة القش فتنط قريـة « حرفيش » كدائرة من الغبن . لقد اعتاد فلاحوها ان يستأجروا ارضهم المصادرة ، والمحولة الى مستعمرة « الكوش » تحت حجة الامن والتطوير . هكذا يصادرون يدك ، ثم تتقدم بطلب استئجار، فيمنحونك اياها سنويا ، مقابل ايجار وعقد خاص .

كنا نصرخ لنعيد توازن الاشياء مع عواملها وتيارها المتدفق الى الامام . و« بيت جن » ما زالت تغط في العتمة ، مثل هـذا الصالون الموحش ، وتنظر خلسة الى صريفات الدجاج المضـاءة في مستعمرة « روش بينا » ، وتستكمل دائرة الانغلاق ؛ تعض على جرحها ، وتنام كالغزلان مفتوحة العينين .

« جريدة الاتحاد ــ صيف ٧٣ ــ بيت جـن :
حاصرت قوات الشرطة بيت السيد س.ح.غ. ،
وادخل اهل البيت الى غرفة اغلقت شبابيكهـا
وابوابها ، وبقي معهم شرطيان وجاويش. بينما
قام البولدوزر في الخارج بهدم الغرفة المجاورة» .

هارب من التجنيد ، بلطة سقطت على رأسي ، وانا في مركز شرطة سيجف ، وايقظتني من الالم الحاد في الكتفين . كيـــف نسيت ذلك ؟ لقد تصرفت وكأن الامر لا يعنيني . عقوبتان ، وتخرج يا طارق الى صالونك المهشم لتعيد انتظام الاشياء ، من طاولة النرد الى المرآة المستطيلة على عرض الجدار . اعـــادة انتظـام الاشياء كما كانت ؛ آه ، وترابك الرهن او الاستئجار ؛ آه !

(الليل امرأة زنجية شبقة ، الفجر طلعـــة
نهدين سكينين . الظهر عري وجوع وكـــلاب

وحرس . العصر استرخاء فم دبق بالشهوة .
المغرب خاصرة امرأة رذاذية الملمس . الزمان
امراة !

المكان ، لحم زئبقي يسد نافذة الشارع ،
ويغطي قبل الوقت، نباح الكلب وصفير الخفير.

الرتابة امرأة مملة ضامرة الشفتين من
البلادة .)

الصالون مملوء بالفراغ والهواء الفاسد حتى الرقبة . انه يطبق فمه علي ، ويتحول الى تابوت من الجير ، وانا بجوار فتيلة السراج ، تلك البقعة الضوئيةفي جرف متخم بالعتمة ، ألمح طبقات الضيق تتراص في حشد منتظم حتى السقف . وحدي ، والليل عربون من الالم ، وعلى منضدة القش بقايا جريدة وشبه كتاب .

شجر الدراق يشق دوائر الدخان ويرسم حقلا . ووجه سميرة ، دراقة وردية يغطيها زغب ابيض . تفرد دراقة واحدة بين يديك ، وتتدلى على شجرة توت ولا تفيق الا على شفتين متوهجتين بالورم والشبع . تطرد دراقة على حجم وجهك ، فتنفرد برية خضراء ، وعلى الطريق حجلتان تنطان بخفة وامتلاء.

اكتشفت فجأة ، ان سميرة تندغم في جسدي ، وليست مادة دائمة الضياع ، كما كان يفتش ابي عن مواده الضائعة ما بين الحذاء والحطة . هل ينتبه المسافرون الى نهر النعامين وهم يتركون سور عكا ويتوجهون الى خرائب الطنطورة ؟! ها هو النهر يسير في جسدي و « الرامة » ليس بعيدة !

(جريدة الاتحاد ـ صيف ١٩٧٢ ـ « .. الابن الاول الشيخ ج.م، عضو الكنيست ونائب وزير الاتصال ، هارب من البيت . وان قوات الشرطة فشلت في القاء القبض عليه .

« .. الابن الثاني للشيخ ج.م. كان قد اطلق الرصاص على

رجله ، لنفس السبب ، وبذلك اجبر السلطات على اعفائه من الخدمة العسكرية).

●

تقلصت ساعات عمل طارق ابو وردة ، وتقلص الحيز المتروك للزبائن ، فلم يعد مهما عنده فيما اذا كان العرب او الفرس او غيرهم ، هم الذين اكتشفوا النرد، خاصة وان ارناؤوط غادر القرية ، وانه لم يعد عازبا .

ليلا ، كان يقطع الوقت مع زوجته سميرة ، في كيفية جديدة للخروج من مأزق تقسيم غرفة مستطيلة الى صالون حلاقة والى منزل عائلي . وكثيرا ما كان يعقب ساخرا !

ـ فضيحة وعليها شهود !

يطل الصالون على ساحة المطحنة من الجهة الشرقية ، وتلاصقه مكتبة عزيز ياغي التي اخذت تستورد الجريدة ، ثم كور الحداد جبران الذي اصبح منذ موته ملكا خاصا لشقيقه عامر ، وكاد يتحول الى ورشة صغيرة . بعد الحداد ، يبدأ زقاق فرعي يفصل الكور عن الخياط زيدان ، الذي يحتل بداية القوس من الجهة الجنوبية ، ويجاوره دكان جميل وادي ثم المحل المنسوف للحاج جميل ذياب ، ويتوقع القرويون ان يتحول المكان الى عيادة صحية . في الجهة الشرقية يمتد الشارع الذي يخترق ساق القرية ، ويفصل محل الحاج جميل ذياب عن المطحنة التي توقفت عن العمل منذ زمن ، وهي على ابواب ان تفتح كأكبر معرض في القرية للاحذية والمصنوعات الجلدية . وفي الجهة الشمالية دكان للاقمشة والملابس ، يجاوره الزقاق الثاني للساحة .

ـ الحياة لا تطاق في هذه الساحة ، لقد تحول بيتنا الى خم صغير داخل ورشة متسعة .

ـ .. اطمئني يا سميرة ، سنجد حلا .

وفي اليوم التالي ، عندما جاء ابو فارس ليقص شعره كانت فرصة لجس النبض .

ـ الصالون رائع كما ترى !

قال طارق ، ودار حول رأسه وطقطق بالمقص .
ـ وخاصة اذا كان بيتا !!
ـ مسطح القرية سيخنقنا جميعا اذا لم نتصرف .
ـ كيف نتصرف وكل رخص البناء رفضت ؟
ـ ...
ـ الارض المشاع على جانبي الاسفلت حتى العريشة ، لا يجوز ان تبقى للماعز !
ـ على مسؤوليتنا سنتصرف ، لن يوافقوا على طلباتنا .
ـ ولماذا نخاف ؟ ها هي الحظيرة قائمة منذ شهر ولم نسمع شيئا .
ـ الحلاق اليتيم في القرية .. وكيف لا نفهمه !

●

الناس يتمتمون بغضب ، وعباد شمس تنمو مثل شتلة ريحان بين الماء والشمس . وزارة المعارف ما زالت تماطل في الموافقة على حقل المدرسة . الهستدروت يرفض ان يتحول النادي الى ناد حقيقي ، مكتمل العافية والادوات ، وزارة الصحة تدعو مرضى القرية الى مراجعة عيادة « كوبات حوليم » في المستعمرة . وزير الداخلية ، لم يوافق حتى الان على موازنة المجلس ، الكهرباء انارت المستعمرة ، ووصلها الماء ، التليفون والبريد . و « عباد شمس » ، صرخ طارق ابو وردة ، « هل كتب عليها ان تبقى كومة من الزرائب ؟! ..سنباشر البناء حتى لو حطموا البيوت على رؤوسنا »..

وعلى جانبي الاسفلت ، كانت حياة جديدة تنمو ببطء ، ومن بينها منزل من غرفتين للحلاق طارق ابو وردة ، كان مزهوا بزنوده وزنود الفلاحين ، وهو يقف امام باب الدار ، ويفرد يديه على اخرهما ، ويستنشق هواء مرطبا ، ويهمس في اذن الدراقة سميرة :
ـ اذا جاء الشرطة ، حملت لهم موسى الحلاقة ، واعطيتك سكين المطبخ .. لن نخرج من هنا الا جثة هامدة .

(خ) توفيق السعيد

« فـلاح ـ عامل »

لون حيطان القرية يندغم بلون الارض فتبدو المنازل كنتوءات في التربة الحمراء . النسيان وتوفيق السعيد متلازمان . أين وصلنا ؟ تضحك العضلات واعشاب الدار والبيوت الطينية الواطئة. عينان عسليتان تربض فوقهما حواجبه الكثيفة كأجمة من الصنوبر، ويد تلوح بالمنديل على رأس حلقات الدبكة في كل عرس . بين حاجبيه تكاثفت ثنيات الغضب كأثلام الارض ، وحصان يصهل في عنق سارة بلعاوي وهي تتسلق العمر ساعة فساعة . تصلب انفه المخروطي وتلاصقت الارنبتان حول منخريه وفوق شنبه الاسود. كان الحصان مربوطا الى ساق شجرة الزيتون بجواره . « يا سارة لم لا تسألي عن رطوبة السجن » . تلاصقت شفتاه وارتعش الحنكان وهو يقضم اسنانه بحنق « يا سارة ، السجن احتراق جسد من الشمع تحت عيدان متبدلة من الكبريت . » . كان يركض كترس مفتوح للضرب ، ما بين عصا الجندي الذي يركض خلفه ، وهراوات الجنود في اللاندروفر . وكان سقف الفضاء الجملوني الرائق ، مثل وجه بحيرة طبريا ، يحتضن عريشة الديراوي وهم يتناولون الفطور .

ومنذ دخل الجيش في المرة الثانية ، وصادر ارض عاشور، فقد توفيق السعيد عمله في الارض ، واصبح الليل مؤتمرا مفتوحا يتقاسمه ثلاثة رجال ، هو ومفيد مرعي وخميس مفلح.

« نشتري طنبرا ونعتل عليه ، عربة وحصان وسائق يلعن عاشور وجد جد عاشور في كل ضربة سوط » . « كان الافضل او اقترحت الكارة ، بغلان وعربة وسائق يكسر انف كاتسمان ، وهو يروض البغال » . « وحتى تكتمل ، لا ينقص هذه الجوقة الا الحنطور ، حصانان وركاب يتعاطون الحب ، وسائق نصف قواد يرمي عيونه في قفا الحصان ».

أطل وجه سارة بلعاوي وهي تقدم صينية الشاي ، وترمي جملتها الحارة بحرقة وتحسر :

ـ يا جماعة ! هذا ليس وقتا المزاح . حنطور ، طنبر ، كارة ، شكلوا هذا الكرنفال ، وانا اعدكم بأن يتفرج عليه كل أطفال القرية .

●

العريشة بمحاذاة الاسفلت ، تحولت الى مقهى ومطعم دون الاخلال بوظيفتها ، ودون اي اضافة على بنائها القديم . فبعد صلاة كل فجر ، يقف العجوز امين ماضي ، خلف المقلاة ويبدأ في تجهيز أقراص الفلافل والشاي. عيونه مفتوحة على سيارة ابن جميلة ومذاود الحمير ، ويداه مفتوحتان على المقهى ، وهو ينتظر الدفعات الاولى من العمال الذاهبين الى عكا ، حيفا وتل ابيب .

« شاي بالحمير » !

قال توفيق السعيد مازحا ، فعقب مفيد مرعي :

« من يدخل الاسطبل عليه تحمل روائح الحمير !» والعجوز امين ماضي يرمقه بغضب وارتعاش . « ما الذي بقي لك حتى تموت ؟» .

سأل مفيد مرعي ، فثار العجوز ، مستفيدا من صوت مفيد الناعم وحنكه المرتخي ، فأعاد السؤال وهو يحرك شفتيه ولسانه وحنكه ساخرا ، ثم قال :

« الحق ليس عليك يا عاطل ! الحق على الاله الذي صنعك رجلا ، والا لكنت الان منبطحا وفوق بطنك حمار !» .

كانت اجابات العجوز ، تضفي على جو المقهى نكهة خاصة. فكل عمال القرية ، وطلاب الثانوية ، يمرون من العريشة ، وكلهم يعرفون امين ماضي وحبه للمزاح المشاكس ونقل الاخبار . فهذا القلب الطيب كقرنفلة بيضاء ، لا يثيره الا الاشارة الى حريق البيدر وموت الحمير ، وما خلا فانه يحافظ على توازنه فيحالتي الهجوم والدفاع .

« ما الذي بقي الك حتى تموت ؟» .

سأل توفيق السعيد ، فرمقه العجوز من خلف المقلى محاولا تجنب اثارته :

« سأموت وفي يدي قرص فلافل وعكازه».

« وحين اضعت الحمير او البغال ؟» .

قال مفيد مرعي ، فعض العجوز على شفته محاولا السيطرة على نفسه .

« يا رجل ارجوك لا تذكرني بذلك اليوم الاسود ».

« هاه.. وحريق البيدر ؟!».

قال توفيق السعيد ، فنتر العجوز يده من المقلى وصرخ :

« اقسم بشرفي انت جاسوس اليهود »!

« تعال .. يا مساح ، عطشلي ، سائق ».

قال توفيق السعيد ، وكان وجه العجوز قد تحول الى عجينة من اللحم المحتقن ، ومفيد مرعي لا يكف عن الضحك والقهقهة .

« كنت سائق قطار وهذا يشرفني ، اما امثالك فلن يجدوا عربة طنبر » .

« عربة طنبر » !

كرر مفيد مرعي ، وغرق الثلاثة في ضحك متواصل وهم يستذكرون حوار الليلة الماضية ، ومشهد الكرنفال الذي راهنت

عليه سارة بلعاوي ، وخلفهم يصفق طابور طويل من اطفـال القريـة .

« مسـاح، يعني بويجي قطار !
عطشلي ، يعني عتال فحم ومازوت !
سائق .. هذه لا اعرف فيما اذا كانت ثابتة »!

قال توفيق السعيد ، فخرج امين ماضي من خلف المقلى، وتقدم وهو يرفع عكازته :
« اشهدوا يا جماعة ، هذا الرجل استغنى عن حياته ».

ويلوحها في الهواء ثم يطجها على الارض ، بعد ان يفر توفيق السعيد ويتكىء على عامود العريشة بجوار السيارة .

وبعد ان تمتلىء عيون توفيق السعيـد بالدمـع من كثرة الضحك ، يفتح يديه الاثنتين ويمسح وجهه ، ثم يزفر :
« لا تؤاخذني يا عم امين .. اذا لم نضحك متنا قهرا .. وضحكوا علينا .. بخاطرك .»

ركضوا نحو الاسفلت ، وغابوا في بطن الباص ، والعريشة تختفي حتى تغدو ندبه ، فيهمس توفيق السعيد لنفسه « ايـه.. دنيـا »!

●

ثلاثتهم ، توفيق السعيد ومفيد مرعي وخميس مفلح ، مثلما كانوا في الارض معا ، عملوا في ورش البناء معا . كـان خميس مفلح لا يتقن سوى جملة واحدة، يعتبرها افضل ما في سلة الماضي ، ويحوطها بهالة من الاسرار وكأنها فاتحة الخلاص. « مثل لغم البصة .. السبعة بعشرين » ، يرفع حاجبيه ويكرمش شفتيه ثم يزمها وكأنه يقول « لست بسيطا ، فالدنيا كلها تحت ابطي ». وبعد الحاح متواصل ، اضطر خميس مفلح ان يشرح معنى الجملة ، فقال ان لغما فجره الانجليز في عشرين عربيا عام ٣٦ ، فرد العرب على اللغم بلغم آخر وقتلوا سبعة من البريطانيين، ومن يومها ، وهذه الجملة ـ الحكمة، « استخلصها خميس مفلح من سلة الماضي وغدت ملكه الشخصي » !

وما قاله خميس مفلح ، كان مقتبسا عن اصل واقعي ، ولكنه شديد الغربة عنه . ففي خريف عام ٣٨ ، نصب الثوار لغما لسيارة عسكرية بريطانية تقل ستة جنود وضابط على شارع البصة ـ الحدود الشمالية ، الى الشرق قليلا من البلدة وعلى بعد ١ كم منها . رد الانجليز على الحادث بقتل اربعة ابرياء من سكان قرية البصة ، واعتقلوا العشرات من شبابها وشباب قرية الزيب. وبعد الحادث والرد عليه بشهر تقريبا ، عاود الانجليز ردهم بطريقة جديدة ، وهي الطريقة التي استقى منها خميس مفلح ما يسميه حكمته الخاصة .

ففي نفس موضع اللغم السابق ، نصب الانجليز لغما ، واشاعوا انهم سيفرجون عن عشرين سجينا من سكان قرية « الزيب » ، الموجودين في معتقل « اكرت » . جاء باص مصطفى السعدي لنقل السجناء ، وما ان وصل الى موقع اللغم حتى انفجر، فاستشهد تسعة وجرح احدى عشر شخصا ، وقتل السائق حسن سانبو من عكا . ورغم هذا التوضيح المطول ، المنقول عن شهود عيان ، فقد حافظ خميس مفلح على مثله وقصته دون اي تعديل .

« وماذا تريد ان تقول ؟» .

« مثلما اضاعها العرب .. سيعيدونها » .

« واذا كان الذين اضاعوها وورثتهم هم الذين يحكمون الان في الوطن العربي ، فماذا تنتظر ؟» .

« مثلما اضاعها العرب .. سيعيدونها ».

جملة من المسلمات هي اعتقادات خميس مفلح ، وفي كل مرة يتحاور فيها مع توفيق السعيد يختلفان ويتناقضان وتستمر علاقتهما الحميمة والراسخة .

●

ثلاثتهم عملوا في ورش البناء معا ، وتعمقت الصداقة بينهم، مفيد مرعي ، بصوته الناعم وحنكه المرتخي ، يعتز بصورة علنية، بعلاقته الخاصة مع توفيق السعيد . وفي مساء كل يوم ، عندما

يعودون الى القرية . يحرص توفيق السعيد على شراء الجريدة ، ويطير فرحا عندما يشاهد اسم عباد شمس في صفحتها الاولى. ولم يصدق عندما احضر له زميله في الورشة ، وهو عامل حيفاوي، نسخة قديمة من الجريدة ، تحمل صورة تظاهرتين ، الاولى في القدس والثانية في تل ابيب ، تضامنا مع عباد شمس . ويومها ارتج حنك مفيد مرعي ، وهو يلتفت الى توفيق السعيد قائلا : هل اعطيك صورتي حتى ترسلها الى الجريدة ؟!

وبعلاقته مع الحيفاوي ، ومع الفأس والطورية وعربات الحديد الصغيرة ، اكتشف توفيق السعيد ان العمل في شق الطرق ومد خطوط الكهرباء وشبكات المياه ، يخلق ألفة جميلة ، كتلك التي يشعر بها في العريشة عند العجوز امين ماضي.

« مثل لغم البصة .. السبعة بعشرين » .

قال خميس مفلح ، فصده توفيق السعيد :

« دعنا من الماضي يا رجل ، يغالبني الشك احيانا بانك ما زلت تعيش في عام ٣٨ وبطريقة مشوهة .» فتدخل مفيد مرعي محاولا ابداء رأيه المتميز :

الا تلاحظ ان كلّ هذا الطابور من العمال هو في الاصل من الفلاحين ؟! .. فلنتحدث عن الزراعة اذا ...» .

« نحن في القرية لا نرى من الفول الا ذيله ، ذلك الضابط كاتسمان ، اما الان فنحن امام الفول بكامل شحمه ولحمه ».

فعقب مفيد مرعي مؤيدا :

ـ هذا هو الصحيح .. الفول كله في المدينة .

(د) أحمد منسي **(ذ) هنية بدران**

« فران » **« خياطة »**

رشقات المطر ابريق من الاولمنيوم يغسل وجه الارض ووجه هنية . في مرود الكحل اذابت حزنها واكتحلت ، وقالت للمرآة وجعي في عيني . كان المطر يدق على النافذة برتابة ، وهي تسكب الحزن على شعرها فيسيل مع الوروار والعمود الفقري ، ويتطاير بخارا في لجن الغسيل . أغلقت الترباس ، واشعلت وابور الكاز ، فامتد الدفء الى سقف الخشب واعواد القصيب ، ولانها وضعت سرها في عينيها اصبحت قصة مقروءة في وجـــوه الفلاحـين وغمزاتهم .

المطر يدق برتابة ، واعمدة البخار المتصاعدة من ظهرها تذوب في جو الغرفة الرطب . اقتربت من النار . كانت تفتـــش في جسدها عن احمد منسي . فلة ذاوية تتآكل في الماء الساخـــن وعيون ابنتها المطبقة على يتم قديم .

لم يقل العجوز حمدان بدران « اريدك ان تتزوجي يا ابنتي ، وأحمد منسي خير رجل في القرية » . بل كان دائم التبرم مـن الرحلة التي تأكل من اعصابه وبريق عيونه . ولم يأت شقيقهـــا

الاصغر كعادته ، يقرع الباب ثم يقفز فرحا : « يا اختي .. احمد منسي في الخارج ».

كانت تمشي على قلبها ببطء ، كمن يقطع شارعا من الحجارة المسننة . المطر يصفق الجدار مع الريح الهائجة في العتمة ، وزخة اولى انحسرت عن النافذة . « من انت ؟» . « ذراعان ونافذة » . « يا ويلي وبريق عينيك». « اخذوه » . « هم ؟» . « انـــت ». و« السجن». «عباءة شرف وصحراء» . « سأبكي » . « لوني هذا البحر الملوث بكرتين صغيرتين من الصدق » . « احمد ..» .

ــ وعليكم السلام .

ــ اسكت .

ــ احمد منسي

ــ مـــاله ؟

ــ في بيتنـــا .

ــ مـــاذا ؟

هرعت الى الطرحة واندفعت نحو الباب الخارجي ، وتيسير يقول من ورائها :

ــ ونسيب الطفلة يا اختي !

ــ اسكت يا خبيث .

المطر والضباب وصوت الوابور ، جوقة كاملة من الارتعاش والدفء . كان جو الغرفة قد امتلأ بالبخار، وضوء الوابور يتساقط على وجهها وهي مقرفصة قرب المصرف . وحتى لا تدخل الريح منه ، سدته بخرقة من القماش ، وراحت تفرك ذراعيها الواحد بالاخر ، اليد اليمنى المبتلة تمتد وتدفع الباب ، ويركض جسد غارق في البلل الى البيت .

« هنية يا ابنتي ، مئة مرة قلت لك ، لا يجوز ان تستمر ارملة في السكن وحدها ، تعالي فبيتنا يتسع لابنائه » . «نشفي البنت ستموت هذه الوردة على يديك » ، « والبيت » . «اتفقت مع جميل وادي على شرائه ، سيحوله الى دكان للادوات المنزلية، فهو لا يقتنع بالعلم ويقول ها هم يتخرجون من الجامعات ويتسكعون

في الشوارع ، الولد يكفيه الصف الرابع ، وسيتولى مسؤولية المحل » . « هكذا يا ابي تبيع البيت وانا فيه » . « يا ابنتي ارجوك تفهمي موقفي، ثمن البيت من حق عبير حتى تكبر وتستر حالها » . « فهمت .. بعتني والامر اله ». « ياموسى تدخل واقنع اختك بان البيع لمصلحتها ومصلحة ابنتها » ، « ولكن يا ابي .. ألم يكن الاجدر بك ان تفاتحني بالموضوع قبل جميل وادي؟!» . « يا اختي. انت لا تريدين القيل والقال ، ونحن لا نرضى به ». « القيل والقال ، ماذا فعلت ؟» . « يا ابنتي السنة الناس لا ترحم ، لماذا تصمت يا ولد ؟» . « وما دخل تيسير بالموضوع ؟» . « انا يا ابي لست وراء سجن الناس » . « تيسير ماذا تريد ان تقول؟». « يا اختي لا احد يعرف متى يخرج احمد منسي من السجن ». « اسكت يا ولد ، احمد منسي اشرف من رأسك ، ويشرفنا ان يكون صهرنا ، ولكن يا بنيتي عندما يأتي النصيب لن اتردد في اسعادك» . « وحتى تطمئني فقد فاتحني احمد منسي بالموضوع قبل اعتقاله ، ولا مانع عندنا ، وانما المانع من عنده ». « ماذا تقول ياموسى ؟» . « اقول انه سيحول الفرن الى فرن حديث افرنجي وبعدها يتزوج ». « والان هل اقتنعت يا هنية ؟!» .

المطر لا يكف عن طرق نافذة الغرفة المملوءة بالبخار ، عبير نائمة في حضن جدها ، وتيسير في الغرفة الجنوبية يقرأ ، اذ هكذا يظن الجميع عندما يرفع فتيلة السراج ويضع بجواره ابريقا من الشاي . لكنه يسحب من تحت الفرشة علبة السجائر ويدخن بشهية ونهم .

جلست فوق « المفرمة » الخشبية ، وكان ضوء الوابور يتساقط على ظهرها ، والمطر يحول الحاكورة الى بركة ماء . على رؤوس اصابعها قطعت غرفة الدواجن ، وبقفزة واحدة ، غمدت في الحاكورة . همس في شعرها ورأسها كدوري يختفي في ثلم الارض واكواز الذرة الصفراء . تسلقت عينيه وغمغم بصرامة : « ماكينة الخياطة افضل زوج من بعدي يا هنية ، انها مضمونة اكثر من عامل مياوم ».

ـ عم تتحدث يا ابت ؟
ـ اقول اذا امطرت فسيباشر الفلاحون حراثة الارض .
ـ عم تتحدث يا أبت ؟
سأل احمد منسي باستغراب ودهشة .
ـ عن المطر .

صفق بيديه واشعل سيجارة ، فهبطت قرقطة الارنب من رأسه الى صدره . ثنى جذعه وجثى على ركبتيه ، ومد يده من الكوة . تلعبط الارنت وحرك رجليه ورفس ، فأحكمت الامساك به : « تعال يا تيسير واذبح الارنب ». « ولماذا انا ؟ » . « الارنب لا يذبح ارنبا ». اشرق وجه هنية بفرح غامر ، ونور اللوكس يترامى على حوش الدار ويشيع الدفء في الغرفة . مد يده الى صينية المسخن فلمح وجه هنية يديم النظر اليه ، اغمض عينيه وتناول لقمة .

●

عاد أحمد منسي في آذار ، والفيوم تسقط دموعها الغزيرة على الارض الام . كان يتفحص جدران الفرن والرفوف ، يفتح رئتيه فتمر الادوات معانقة : موتور السولار ، السدة ، وبيت النار. مد يده وكشط عن الزلاقة بقايا الاتربة ، فاغرورقت عيناه ، كيف يتحول هذا المكان العامر بالشكوى والتعليقات الى فراغ مهجور ؟! هنا ، كانت تقف خديجة وتعد البراري بأمن لا تملكه . وهناك ، تواصل سارة بلعاوي تعليقاتها اللاذعة وثريا تنسحب شاقلة على رأسها طبق الخبز.

هرب من الفرن الى رضوان الديراوي . وفي العلية ، حول « الصوبا » ، فرد احمد منسي ذاكرة صافية عن التعذيب والاسئلة والوجوه . ولم يكد يفرغ من العشاء حتى هب واقفا ، وغادر البيت .

دق الباب ، فهرع تيسير واذهلته المفاجأة . ارتمى في حضنه يعانقه باعجاب ويتطلع الى وجه ، وكأنه يستنطقه زمن السجن .

ـ من في الباب يا تيسير ؟
ـ احمد منسي يا اختي !

ندت صرخة مكتومة وقفزت هنية ، فيما نهض العجوز مرحبا واندفع موسى الى باب البيت . عيون مغرورقة تتطلع اليه بلهفة وتفحص .

ـ وكأنك عائد من حديقة « ميرون » !

قال العجوز مندهشا ، فابتسم احمد منسي قائلا :

ـ بالضبط .. لن ننسى ولن نصفح .
ـ ماذا ؟
ـ وهل نسيت ان حديقة ميرون هي اراضي الفلاحين في « البقيعة » ؟!
ـ لم اقصد يا ولدي .. اعني ان السجن لم يؤثر عليك .
ـ عشت على كفني وعاشوا على سيوفهم فما الذي تغير ؟
ـ الحظ لا يحالفني الليلة .. استرح يا ولدي .. استرح.

وقبل ان يواصلا الحديث ، اندفع طارق ابو وردة من باب الحوش وهو يصيح « سمعت ان احمد منسي عندكم ». وجاء بعده الراعي محمود الجمل ، فتوفيق السعيد ، ولم تنتصف السهرة حتى كان البيت طافحا بالمهنئين .

« انت يا احمد لا تبدأ من الصفر ، فالفرن بحاجة الى ترميمات صغيرة » . « معنى ذلك انهم نجحوا في حشرنا داخل وضع ميت، كلما خربوه اعدنا تكوينه الى الموات » . « والحل ؟». « سأوسع الفرن واحوله من فرن بيتي الى فرن حديث للخبز والحلويات والمعجنات » . « ورأس المال ؟» . « سأتدبر الامر ». « عندي فكرة رائعة ، سندخل المشروع مناصفة ، منا رأس المال ومنك البناء والعمل .. ها هو المبلغ اذا قبلت ».

المحادثة القصيرة بين احمد والعجوز حمدان ، كانت فاتحة حياة جديدة . فلم يخطر على بال احمد ان مسألة رأس المال ستحل بسهولة كهذه ، وبحديث كاد يعتبره مجرد ثرثرة قطعا

الوقت والملل . لكن النقود في يديه . هي نقود حقيقية . رازها. رماها على الارض وعاد فجمعها ، ثم دسها في جيبه . وغـدا دائم السفر بين القرية وحيفا . لاستكمال التجهيزات . « انت سبقتنا الى التطور يا احمد . سألحق بـك قريبا ». عقب جميل وادي وكان دائم الحلم بدكان يتحول الى تعاونية ممتازة وكبيرة. يأخذ الناس حاجياتهم على عربات صغيرة ، والكهرباء تغطي كـل ظلمة الزقاق والزرائب . تعاونية ، كتلك التي شاهدهـا في حيفا وتل ابيب والناصرة . وليس مثل تعاونية الاجرب خليل السيلاوي « تفوه على اصله » .

وذات ليلة علم احمد منسي ان المال يخص هنية ، وانهمـا معا ، اصبحا مالكين لهذا الفرن الجديد . كان سعيدا في اعماقه، فلم يعد بيتها القديم شبحا يطارده الياس ماضي فيه ، فكيـف يأوي في آخر الليل الى عش بناه عصفور آخر ؟! ورغم معرفـته ان الاخر مات وانتهى ، فقد كانت ملكيته للبيت ، تشعره بالعجز الدائم ، وتدفعه الى ان يداوم التفكير ببيت خاص ، حتى ولو كان خشة متآكلة ، وساعتها ، ساعتها فقط ، سيشعل النار في رأسه، ويندفع راكضا الى العجوز حمدان بدران فيقبل يديه ، طالبا يد ابنته هنية .

وما عزز هذا الاحساس ، ان عاشور وجماعته ، قـادوا في الانتخابات حملة واسعة ضد احمد منسي ، والحجة انه لا يملـك شبرا واحدا في القرية ، فكيف نأتمنه في الدفاع عن حقوقنا ؟؟ يومها ثار احمد منسي وصرخ : انتم تنفذون نفس المخطط ، هم يسرقون الارض وانتم تسحبون حق الترشيح وتجهزون عـلى الضحية ! اطمئنوا ايها السادة ، انا لا املك شبرا واحـدا في القرية ، ولانني كذلك ، سأدفع حياتي ثمنا الدفاع عن اشباركم الباقية ، ففي اشباركم قضيتي.

لا المنزل القديم ، ولا قضية اشبار الارض ، اصبحت تثير في احمد منسي الاحساس بالخجل والتواري عن الانظار . واصبح

همه الوحيد ، الارض المشاع للقرية على جانبي الطريق . هنا ، على رأس التلة ، الى الجهة الشمالية من الطريق . تعاونية للخياطة .. وهنية استاذة ممتازة في فن الخياطة والتفصيل . الى جوارها ، تمتد عيادة الدكتور خالد النمر . فصالون طارق ابو ورده وبيته ، فتعاونية اللحم والخضار والفاكهة . فمعرض الملابس الجاهزة .. والباقي المنازل والمؤسسات . ويعرف . احمد منسي ، ان صلاحيات المجلس لا تطال هذا المشروع ، لكنه يسأل: ما داموا يرفضون كل رخص البناء ؟ وما دامت الارض مشاعا ؟ فلماذا لا نبادر ، على مسؤوليتنا ، ونحول الطريق الى رقبة حقيقية للقرية ؟!

- ١٤ -

(ر) رضوان الديراوي

« فلاح »

اذا غبت عن قلبك ، حين دخل الجيش القرية عام ٤٨، فقدت حق ملكيته واصبح لاجئا في جسدك ، وعندئذ عليك التقدم بطلب استئجار بمعدل عشرة دونمات ارض اذا كنت صاحب عائلة . فهل توقع عرب « البكارة » المرحلين من الحولة ، وسكان « ميعاد » المدمرة، وابناء « الدامون » المحولة الى حرش ، انهم سيتقاسمون هذا القلب اللاجيء في قرية « شعب » ؟! وان « حارس املاك العدو » قد ضمن ارض السهل الى مؤسسة للابحاث الزراعية ؟! وهل كانت تحلم مستعمرة «كرمئيل» بمياه زيتون قرية « شعب » ؟!

ـ انحمي رقبة القرية يا شباب ، غدا سيداهمون الاسفلت

قال ابو فارس،وامتدت حوله الاصوات والارجل والهمهمات. وعلى ضوء لوكس ، كان الرهط يقطع الاسفلت الجديد . ذراع القرية نحو الشارع العام . وامين ماضي يرفع عكازته في الظلمة ويصيح :

« للمرة الاخيرة ، لن تدخل جرافة الا على جسدي » .

رفع العجوز امين ماضي فتيلة السراج وهمر لنفسه « لن يفعلوها وانا على قيد الحياة » !

مشى متعكزا على عصاه ، وتحسس طريقه على ضوء المصباح اليدوي ، واطمئن على الحمير والبغال في الزريبة . هذه الليلة لم يطل شبح توفيق السعيد ويناكفه « ما الذي بقي لك حتى تموت ؟» . ولن يرى مفيد مرعي وحنكه الرخو ، فالساحة وعاء من الظلمة والصمت .

توقفت سيارة ابن جميلة في السقيفة، فصاح امين ماضي : « تعال يا ابن جميلة! تأخرت الليلة !» . لم يسمع صوتا فهمس لنفسه « لو وجد من هو اكسل منه لانتحر »، وجلس على عتبة الباب منتظرا خروجه . كان يضع رأسه على ركبتيه ، عندما سمع موتور السيارة وفراملها وهي تغادر السقيفة . « ابن جميلة ! يا ابن جميلة الى اين ؟» ، صرخ وقلب يديه متعجبا . اضاء المصباح وهرول الى الزريبة ، وبين الفراغ والدهشة ، كان الضوء يتنقل على اجساد الحيوانات وهي تتلوى على الارض . « دائما المصائب على

يدي وفي وجهي.ماذا فعلت يا ابن جميلة؟
ماذا اطعمت هذه الحيوانات المسكينة ؟
وماذا يقول جميل وادي ؟» .

هرول مرة اخرى الى غرفته ، اغلق
الباب ، واخذ يدب على الطريق الترابي
وهو يرتعد .. وعندما وصل التعاونية ،
نصف البناء المنصوب في الظلمة ، اصطدم
برجل فسقط على الارض .

ـ عم امين !. ما الذي حدث ؟

ـ اوه هذا انت يا احمد منسي ..
قتلوا الحيوانات .

ـ من هم ؟

ـ امامي .

ـ كيف ؟

ـ جاءت سيارة فظننتها سيارة ابن
جميلة .

ـ ابن جميلة سينام الليلة في حيفا .

نهض العجوز بتثاقل، وسارا الى القرية
وامين ماضي بين حين وآخر ، يتكلم
بصوت مسموع : « قتلوا الحيوانات ،
حرقوا البيدر ، هم ،.. هم .. الان
اعرفهم ».

وردة بيضاء تتفتح بين ساعدي احمد منسي،
وتذوي في آخر الليل بين ذراعيه ، لماذا جاء
احمد باشا الجزار من البوسنة ليفرض ضريبة
على التبن والبيض ؟! وهل حقا ، كانت عيون
« الكابري » تنتظر خوذة مملوكي حتى تنساب
الى افواه العكاويات ؟! عكا .. مدينة خلقها
التاريخ للحرب ، وابتدعت الحرب لتدافع عن

نفسها. ومع عكا نبت آدم ، وكان اول من زرع
الزيتون وصنع الزجاج واستخرج الارجوان .
واول من صنع السفن الحربية ! لم يكن ابو ذر
الغفاري قرمطيا ، حين خرج على ظهر واحدة من
السفن المقلعة من ميناء عكا ، والحيلة لم تنطلي
على احد ، فالناس يسملون عيونهم حتى يهربون
من التجنيد ، فلماذا فرض ابراهيم باشا زراعة
شجر الدردار ؟!

واولت امرأة بتبرم واستفظاع وظلت من باب بيتها ، ترقب حركة الناس ، والاضواء الصفيرة التي غمرت ازقة القرية . كانت أم عيسى من باب بيتها تستطلع الامر :

ـ ماذا يحدث يا ام محمد ؟

ـ يا ويلي .. سيعود الجنود غدا ، تعودوا علينا !

ـ فشروا .

قالت ام عيسى واندفعت الى حوش بيتها ، وتحلقت شجرة الزيتون في قاع الدار ، فاختلط جسدها بالساق وهي تناجي عيسى :

« عيسى يما ! احنا هون على صدورهم دبشة كبيرة ما بتنهد !. احنا هون قاعدين على فشتهم .. بلادنا واحنا حرين فيها » .

الليل ووقع الاقدام على الاسفلت ، دائرة وساق وذراع ممدود نحو الافق . نهضت هنية بدران مذعورة ، وفتشت في ثيابها عن احمد منسي . وقبل ان تنهض ، دخلت ام فارس بعصبتها البيضاء ، فقد كان الباب مفتوحا .

ـ ماذا تقول الفطائر يا عمتي ؟!

ـ يقول المجلس المحلي ان قرص عباد شمس سيبقى مفتوحا في الليل والنهار .. وسنملأه صباحا بالنساء !

عاد محاربا مع المطر ذات شتاء . ها هو

الحوذي مع عربته وحصانه يقف في سقف الجبل .

ـ ما الذي جاء بك الى القمة ؟

ـ المطر .

ـ كيف ؟

ـ كنت ساقية تبخرت . فحملتني الريح الى الفيوم ، والفيوم انزلتني في ليلة عاصفة على رأس هذا الجبل .

ـ انت ..؟!

ـ فلاح تبخر في يوم قائض ، وعاد مع المطر محاربا .

ـ وخديجه ؟

ـ ما زالت تتمرن على البقاء في مصحة للامراض العقلية .

ـ من انت ؟

ـ ليل كالقفص من لا يذق طعمه لا يعرف معنى النهار .. انا المطر .

●

بحر الراحة ، البحر الاخضر اليانع ، من قرية « كفرعنان » الى آخر زيتون قرية « سجور » ، كان مكحلة المسافرين على طريق عكا ـ صفد . ولان تجارالزيت مثل الصائدين ، تنمو بينهم وبين الطبيعة ، بمرور السفر والرحلات ، صداقة حميمة ، كان امين الديراوي ، تاجر الزيت المعروف في قضاء عكا ، مجبولا باخضرار شجرة الزيتون وزيتها . فتلك السمرة الضاربة الى الاخضرار ، والعينان الخضراوان ، تنمان عن جسد تأقلم مع الطبيعة وغدا صنوها .

كان مفتونا بقرية « الزيب » ، وكيف يستطيع اهلها المزج باتقان بين مهنة صيد الاسماك وزراعة الزيتون والبرتقال . ومن الزيب استعاد حلمه وامنيته ، في ان يجمع بين الزراعة وتجارة

زيت الزيتون ، عندما استقر مزارعا في قرية « عباد شمس » .

وحين تمدد سبل القمح كبساط من العصفر ، ومناجل انحاصدين تجز غلة الصيف . كان وجه رضوان الديراوي ، رئيس المجلس المحلي الجديد ، يمتزج اخضراره بحمرة خمرية . كان الاطفال يجمعون السبل الفالت من فم المناجل ، والنساء يحزمن « الاغمار » على ظهر الحمير والبغال ، وتختلط اثوابهن المزركشة برائحة الارض وبقايا الحصيد .

ــ العمل عبادة !

قال الشيخ عبد النور ، وهو يلهث ويكح ويمسح عرقه بياقة جلبابه ، والاب سمعان يقص على المشاركين كيف اخترع الكنعانيون النبيذ .

ــ وربما كان اله الفلة داجون يعشق النبيذ ايضا .

تلمظ جورج حنا واخذ يقول بتقطع :

ــ اقسم بشرفي ان مهنة الحصاد اصعب من مهنة عمال البناء . اذا عملت لمدة اسبوع ستخسرونني .. يا اخواني هذا كفر ، دعونا نستريح .

ضحك جميل وادي الذي يعمل بتباطؤ :

ــ على أيامنا ، كان حصاد واحد يقوم بهذا السرب !

فأكمل احمد منسي ساخرا :

ــ وربما تكفل هذا الواحد بالحقل كله !

قهقه جورج حنا واستلقى على الارض وهو يقول :

ــ ولحسن حظنا لم نوجد على ايامكم !

الراعي محمود الجمل ، كان يشغل قلب السرب الثالث ، ولا يكف عن الحديث ، رغم الضحكات المتوالية لصوته الالثغ .

ــ يا جماعة اغموا المناجل .. اخت هالحالة !

ــ انت الراعي وتتأفف من المنجل ، فماذا يفعل الحلاق مثلي؟

ــ يا طاغق ابو وغدة بطل مزاودة ، اغموا المناجل يعني اغموا المناجل .. طقت غوحي !

رمى منجله وانبطح يلهث على الارض ، فأخذ مفيد مرعي يصرخ ، بحنكه الرخو وصوته الناعم :

ـ يا بنات هاتوا المي للراعي . يا جميلة ! تعالي شوفي الاسد زوجك ، مبطوحا على الارض مثل القتيل !

تطلع وما زال رأسه على الارض وقال :

ـ ولك يا ابن مغعي شو صاغ لك ؟! ما فيش شاغات على كتفك بدي اوخدها !

ـ خلي الشاغات الك !

ضحك ابن جميلة بكل ارتواء وتوقف عن الحصيد وهو يحملق بجسد الراعي . كان يحسده على هذه الراحة ويتمناها ولكنه يخجل ان يعلن افلاسه .

ـ حتى انت يا ابو الغبعي ! طيب بوغيك ! تانشوف مين اشطغ ومين الزلمه فينا اللي بكمل الطغيق !.

ـ ...

ـ مالك اطفش .. مش سامع ؟!

لم تعد هذه الالفة الجماعية مصدرا للحديث عندما اخذت الحصادة دور الاسراب الثلاثة . ولم يبق من الذاكرة القديمة، سوى بعض الاطفال الذين يركضون وراء الحصادة ويجمعون السبل الفالت من فمها . الالة تزرع ، الالة تقلع ، وتحصد وتدرس وتذري وتغربل وتكيس ! وكلما اتسع استخدام الالة ، تزايد عدد العمال الخارجين كل صباح الى المدن ، والعائدين مساء الى فراش زوجاتهم ، فماذا تقدم هذه البقع الارضية لالاف الافواه التي تكدست فوق بعضها في عباد شمس ؟!

دائرة وساق داخل مستطيل من الحصاد ، وتبدو كالفطر البري . وقبل ان يباشر رفع شكواه وعرائضه ، كان اول عمل قام به رضوان الديراوي ، فور خروجه من السجن ، القاء نظرة الوداع على اراضيه المصادرة . ركض نحو الارض فصده الجندي:

ـ الى اين ؟ هذه الارض مصادرة ، فأين التصريح ؟!

ـ تصريح ! انها ارضي .

انطلق يعدو بين اثلام الارض وهراوة الجندي تلاحقـــه. تعفرت قدماه بالتربة الطينية ، وعب من الريح المشبع بالبرتقال، والهراوة تبتعد ، وساقاه يدوران بخبطات ثقيلة ، ويخب حذاؤه في التراب الرطب .

ــ قف والا اطلقت النار !

تجمدت قدماه واستدار نحو الصـــوت ، فاعاد الجنـدي البندقية الى كتفه ولوح بالعصـــا . ومن بعيد ، صاح ابو فارس:

ــ من اين آتيك بالتصريح !!؟

ــ من الجنرال ايتان قائد المنطقة الشمالية .

ــ . . .

ــ من ضابط الشرطة فرانكو !

ــ . . .

ــ من وزارة الاسكان او وزارة الزراعة !

ــ . . .

ــ من وزارة الدفاع او الهستدروت

ــ . . .

ــ من الشيطان .. تعال اولا !

ــ الشيطان ! آه ، اعرفه جيدا .

لوح بالعصا ، وهوى بها على الارض فتناثرت الكتل الطينية، وحملق ابو فارس وصرخ :

ــ هل انت مجنون ؟!

ــ . . .

دفعه بمقدمة العصا بين كتفيه وقال :

ــ والان اخرج من الارض !

بضع خطوات ثم اصبح داخل المستطيل ، ومن بعيد ، كان يلمح رأس الفطر البري ويستسلم لوهج الشمس .

لوح بمنديله ، فامتد حقل من الغضب والتوتر حواـــه . قفز فتطايرت « الدلعونا » وكان الليل يفتح جرحــه . زغردت

الفرس للحصان الفالت في براري العتمة ، فصاح توفيق السعيد :

« .. الفول كله في المدينة . وسيأتي غدا لزياتنا ».

شمر عن ساعديه . والرهط ممتد فوق الاسفلت، وقال :

« .. غدا اجازة يا شباب . سننتظر الفول » .

ركض الراعي محمود الجمل نحو بوابة المنزل وترك الحصان والفرس يدقان الارض بنشوة وحماس . ومن بعيد ، لم يلمح كما هي العادة ، القطيع يدور حول الطريق ويفتش بين الصخور عن الاعشاب والاوراق المتطايرة . هز زوجته وقال :

« جميلة ! قومي يا جميلة ! كاتسمان ولعها ».

وجها لوجه .

يستجمع كاتسمان طاقة الكراهية والحقد ويدسهما تحت قشرة الوجه المتجلد ، فيبدو وجهه ، مثل مستنقع تنمو على حوافه شجيرات برية !

يفرد رضوان الديراوي وجهه كقطعة من الارض الطينية الحمراء ، ويخفي عشق عمر متهدم تحت بسمة الثبات والاطمئنان .

كانا في القرية وجها لوجه . كاتسمان وخلفه الاوراق والخرائط ، والمستعمرة التي غدت قرية صغيرة . ورضوان وفي وجهه اندفاع قرية كاملة ترغب في الحياة، وتجاهد في صناعة رقبة حقيقية ، تتنفس من خلالها . كانت الابنية قد اقيمت ، وامين ماضي يحرص على فلافله وعكازه ، والطوابير تمضي في الباصات الى المدن القريبة والبعيدة .

« لقد تذكر التجار قريتنا » ، كانت

القرية تهمس وسيارات « الكميون » تأتي واحدة وراء الاخرى ، والميكروفون ينادي على البيض ، اللحوم ، الحليب ، الموبيليا، الحصر،.. القرية تفيق على زحف البائعين اليها وعلى رحيل عمالها .

ادرك رضوان ، ان الزيارة فاتحة صفحة جديدة من العنف ضد القرية . وزير الداخلية ما زال يماطل في الموافقة على الموازنة . ومشروع انارة القرية ما زال مجمدا . وحتى بستان المدرسة ، فمنذ سنتين ووزارة المعارف تدرس المشروع ! قبض سواعده بيديه ، ونصب وجهه بينهما ، وقال وهو مغمض العينين:

ـ نعم !؟

اوراق كاتسمان ، وخطته في نسف المنازل اخذت تتهاوى واحدة وراءالاخرى. ها هم يرفضون نسف منزل عاشور عبد الهادي ويحولونه الى مركز للشرطة ! ويشيعون ان الرئيس القديم للمجلس سيعود رئيسا الى «قرية» عباد شمس، ثم يغلقون ملفات التحقيق في حرق المقهى واحتراق ارناؤوط .

حدق كاتسمان ، وود لو يقابل عاشور عبد الهادي ، الفم المعجون بالموافقة ، والعقل المطواع للتوجيهات ، فتح فمه، وخال عيون الديراوي تتدحرج فيه وتسد سقف الحلق ، تنفس وكأنه يطرد العينين من نافذة الجسد ، وقال :

ـ انت تعرف يا رضوان انا اتحدث معك كصديق .

هز رضوان الديراوي رأسه وقال وهو يبتسم :

ـ لسنا اصدقاء .

توفيق السعيد بعد توغله في اكتشاف الفول ، قدم في الاسبوع الاخير ، مقترحا مكتوبا الى المجلس، يدعوه الى تبني مطلب قيام مجلس عمالي في البلدة ، كانت الورقة تحت كوع رضوان الديراوي وهو يستمع الى كاتسمان .

ـ انتم تجاوزتم القانون .

ضحك ابو فارس وهو يردد بتلقائية :

ـ مشكلتنا ان القانون لا يعترف بنا .

ـ اقصد .. انت تعرف ان البناء على جانبي الطريق من القرية الى الاسفلت غير شرعي وضد القانون .

ـ قريتنا محرومة من القانون ، وانت تعرف يا سيد كاتسمان اننا لا نتلقى التوجيهات منك .

ـ اعرف ، اعرف يا صديقي ، ولكنكم قمتم بالبناء دون ترخيص، وهذا لا يجوز .

ـ الارض تخص القرية .

ـ ولو

ـ ما الذي تريده ايها « الصديق »؟!

ـ اريد ازالة البناء من موقع الحرص عليكم ، حتى لا يدخل الجيش غدا وتقولون انه لم ينبهكم احد الى الموضوع !

ـ الامر لا يعني المجلس .. قانونيا !

خرج كاتسمان بحيوية وانتشاء ، فقد تمكن من ان يلقي في اذن الديراوي كل

ما في صدره ، وعاد خفيفا ، تسبقه
اوراقه وخرائطه ، الى المستعمرة .

كان طارق ابو وردة - مزهوا بزنوده وزنود الفلاحين ، وهو يقف امام باب الدار - رقبة القريةالفارقة في العتمة ، امتلأت بالاضواء والاصوات ، وهو يفرد يديه على اخرهما ويستنشق هواء رطبا ، ويهمس في اذن الدراقة سميرة :

« اذا جاء الشرطة ، حملت لهم موسى الحلاقة واعطيتك سكين المطبخ .. لن يمرق البولدوزر الا على جثثنا ».

وفيما توارى جسد طارق ابو وردة في العتمة ، كانت الرؤوس تشرأب من تحت الاردية والمنازل الطينية الواطئة ، وتنتظر شمس الصباح .

طبعت على مطابع دار الغد
بيروت ـ شارع سوريا ـ ملك بردويل ـ تلفون ٢٣٠٥١٢